سامح فايز

رحلة يوسف

سامح فايز

رحلة يوسف

المحتويات

بداية الرحلة ٧

كتاب يوسف ٢١

الرحلة إلى الجنوب ٩٥

بعد النهاية ١٧١

شكر ١٨١

بداية الرحلة

تهيأت للخروج. أمام باب المنزل وقفت لدقيقة، ربما أعدل عن التجربة، أخشى أن أستعيد أوجاعًا ظننت أنني تناسيتها، لكن يد زوجتي التي وجدت طريقها إلى كتفي أزاحت عني القلق. هي المرَّة الأولى التي لن تغضب من تركي المنزل لفترة طويلة: دائمًا ما تعاتبني على اهتمامي بالعمل على حساب الوقت الذي أقضيه معهم، إلا في هذه المرَّة، عاتبتني عيناها فقط حين ترددت قبل الخروج من باب شقتنا في منزل عائلتي بمركز كرداسة. قالت:

ـ إنه كتاب يوسف، ويجب أن يكتمل.

* * *

ـ إبشواي، فيوم، إبشواي.

صوت المنادي أمام موقف ميكروباصات الصعيد بُحَّ من طول الانتظار:

ـ إبشواي، فيوم، إبشواي.

توجهت إليه رافعًا يدي بالإجابة. أسرع ناحيتي وقد هش وجهه بلقاء الزبون. جلست في الميكروباص وكنت ثالث ثلاثة، وطال جلوسي ساعة حتى اكتمل العدد.

انطلقت السيارة من ميدان الرماية في طريق الفيوم. الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا. كنت أراقب الوقت كثيرًا، فقد أدركت أهميته مع ولادة يوسف. قبل مولده لم يجد الوقت سبيلًا إلى دائرة اهتماماتي، لكن المسألة اختلفت في اليوم السابع عشر من شهر أبريل عام ٢٠١٤. في ذلك اليوم أصبحت الساعة تساوي حياة.

* * *

على مدار أسابيع مضت تلقيت استفسارات من الأصدقاء، أسئلة مليئة بالدهشة، يتعجبون لماذا أقرر الانتقال بنفسي بين مدن الصعيد بحثًا عن حكاية أكتبها. يقولون إنه يكفي أن أجلس في مكتبي بالجريدة التي أعمل بها، وأجري مكالمات هاتفية بالأصدقاء في المحافظات المختلفة، وأطرح عليهم أسئلتي، ثم

ينتهي الموضوع. ربما هزت اعتراضات الأصدقاء مرَّة أو مرَّتين رغبتي في الانتقال بين المحافظات، لكنني كنت أعود وأقول لنفسي إن الحكاية التي ستجد طريقها إلى «رحلة يوسف» يجب ألا تكون من الحكايات العادية التي أحصل عليها من خلال الهاتف.

* * *

في الطريق من منزلي بمحافظة الجيزة إلى الفيوم ـ محطتي الأولى في «رحلة يوسف» ـ تلقيت اتصالًا من صديقي ومضيفي، شاب في السادسة والعشرين من عمره من أبناء قرية «قصر الجبالي» بمحافظة الفيوم، أنهى حديثًا دراسته بكلية الطب وقرر أن يقضي تكليفه الطبي في وحدة صحية بقرية «بركة» المجاورة لقريته. قال إنه عليَّ أن أستقل وسيلة انتقال أخرى عند وصولي لمركز إبشواي كي أجد طريقي إلى مقر وحدته.

كنت آخر الركاب نزولًا من الميكروباص. سألت السائق عن الطريق إلى قرية «بركة»، فأشار إلى موقف التوكتوك وقال:

ـ هذه وسيلة انتقالك الوحيدة.

توجهت إليها وطلبت من السائق اصطحابي لقرية «بركة»،

مركز يوسف الصديق. طالت المسافة لعدة كيلومترات، وكنت قد ظننتها قريبة. لفت انتباهي أن الطريق ضيق، وأن أهل القرية يستخدمون الطريق نفسه في الذهاب والعودة، على الرغم من أنه بالكاد يسمح بمرور سيارة واحدة. بعد سبع عشرة دقيقة تقريبًا وصلت إلى المكان المطلوب. سألت السائق عن الأجرة فأخبرني أنها موحدة، عشرون جنيهًا. تعجبت من الرقم وظننت أنه استغل أنني غريب عن المكان، دفعتها على مضض. ثم أكملت بضعة أمتار سيرًا على قدميَّ لأن الطريق إلى الوحدة الصحية بالقرية غير ممهد. على باب الوحدة استقبلني مضيفي فسألته عن أجرة السائق، فأكد أنها المبلغ نفسه، وقال إنه لا توجد وسيلة انتقال ثابتة إلى القرية، وإن التوكتوك بمثابة سيارات التاكسي في القاهرة، مخصوص. على باب الوحدة استوقفني مضيفي وسألني السؤال نفسه الذي يطرحه الأصدقاء منذ أسابيع:

ـ فهمني انت محتاج تعرف إيه بالظبط؟

ـ الحكاية بسيطة، عاوز أشوف الناس وانت بتكشف عليهم.

لوهلة ظن أنني أهذي. كلمات ارتسمت على شفتيه لكنها عادت أدراجها. كاد يقول: «كان من الأفضل أن

تجلس في بيتك على فراشك وما هي إلا مجرد مكالمة هاتفية أجيب لك فيها على ما تريد»، لكنه عدل عن ذلك ليعيد السؤال:

ـ يعني انت عاوز تعمل تحقيق صحفي عن الوحدات الصحية في القرى؟

ـ لأ، أنا باعمل كتاب. شوف يا دكتور، إنت ما تعملش حاجة، أنا عارف أنا محتاج إيه.

داخل الوحدة استقبلني رجل في الخمسين من عمره، قدمه الطبيب على أنه كاتب الوحدة، وأنه أقدم موظف في المكان. تركني معه وعاد لمرضاه في العيادة.

جرى حديث لم يطل، حاول فيه كاتب الوحدة أن يخبرني بسلبيات المكان، وضفر حديثه بتعريف لنفسه أنه يعمل في وزارة الصحة منذ خمسة وعشرين عامًا، وأنه التحق بالوظيفة بعد حصوله على دبلوم زراعة، لكنني أوقفت استرساله في الكلام وقلت إنني جئت كل هذه المسافة لأشاهد المرضى وأحكي عنهم. امتعض الرجل، وتركني وخرج ليجلس أمام باب المبنى.

عدت إلى الطبيب وطلبت منه مجالسته وهو يجري الكشف على مرضاه من أهل القرية. عادة، في

المستشفيات الخاصة وعيادات الأطباء، لا يعقل أن يدخل أي شخص على الطبيب وهو يعالج مرضاه، لكن في الوحدات والمراكز الصحية والمستشفيات الحكومية لا توجد مثل تلك التعقيدات: مع كثافة الأعداد التي تزور هذه الأماكن لرخص تكاليف العلاج، وقلة أعدادها لتكفي الجميع، أصبح من المعتاد أن يدخل المرضى جماعات للكشف. على أطراف قرية مجاورة لقريتي بمركز كرداسة، يوجد مستوصف طبي خيري يذهب إليه أهل قريتي جميعهم، حين ذهبت إليه منذ ست سنوات لطلب العلاج، فوجئت بالممرض يدخلنا مجموعات ـ كل مجموعة مؤلفة من خمسة عشر مريضًا ـ ثم يمر علينا الطبيب فردًا فردًا حتى يتمكن من الانتهاء من أكبر قدر ممكن مِن مئات المرضى الجالسين بالخارج. في تخصصات معينة فقط يضطر الطبيب لاستقبال حالة واحدة في كل مرَّة، كما حدث معي في مستشفى قصر العيني، حين استقبلني طبيب الأمراض الجلدية والتناسلية وحدي.

أفسح مضيفي الطريق أمامي وأحضر مقعدًا، فجلست أرقب ما يحدث. كان اليوم في نهايته، ولم أشاهد سوى ست حالات: ثلاثة أطفال، ورجل كهل، وسيدتين في

الستين من العمر، جميعهم تلاقوا في الفقر الشديد، وظهرت من تعاملهم أمية أشد، لكن على قدر ذلك ارتسمت بشاشة على وجوههم لم يبخلوا بها حتى على ذلك الغريب الذي يجلس أمامهم.

* * *

طفلة في شهورها الأولى كانت تسعل بشدة، فسأل الطبيب الأم:

ـ منذ متى وحرارتها مرتفعة؟

لم تجب الأم. أعاد السؤال وضمنه وقتًا قائلًا:

ـ من أسبوع مثلًا؟

لكن الأم ردت ردًّا أذهلني:

ـ ما اعرفش.

فقال الطبيب ساخرًا:

ـ إنتِ متأكدة إن دي بنتك؟!

* * *

اخترت صديقي طبيب الوحدة خصيصًا ليكون مضيفي في محافظة الفيوم، لصداقة قديمة أولًا، ولأنه طبيب في قرية نائية ثانيًا، وثالثًا، والأهم، أنه كان يسترعي انتباهي

دائمًا ما يكتبه على صفحته الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك، عن يومياته في الوحدة الصحية بقرية «بركة»، أو في عيادته الخاصة بقرية «قصر الجبالي» التي تبعد ثلاثة كيلومترات عن «بركة».

قبل قدومي إليه بأيام، حكى أن رجلًا صاحب محل عصير قصب أتى إليه في عيادته الخاصة، وقد اصطحب صبيًّا في الخامسة عشرة من عمره جَرح يده أثناء تنظيف القصب قبل عصره. يحكي مضيفي عن ذلك الموقف قائلًا: «شاهدني الأب وأنا أبحث عن شيء تحت الجلد، فانتبه وسألني عما أفعل، فأخبرته أن الوتر الذي يخص إحدى أصابع اليد قُطع، وأنني أبحث عن الطرف الثاني في محاولة لعلاجه. فسأل الأب بكل هدوء إن كنت أبحث عن «جلدة بيضة»، فقلت له نعم، فعاد ليخبرني أنه وجد قطعة بيضاء تخرج من يد طفله فأحضر مقصًّا وقطعها».

يقول مضيفي إنه انتفض من تصرف الأب وطلب منه أن يصطحب ولده إلى أقرب مستشفى في المركز لإنقاذ يده من إعاقة كادت تصيبها بسبب تصرفه.

في بعض الأحيان كنت أظن أن ما يسطره صديقي الطبيب على صفحته ضرب من الخيال، لكن الوقت القليل الذي

قضيته بصحبته جعلني أصاب بالدهشة نفسها، وأطرح أيضًا السؤال على نفسي: هل لو كتبت ما شاهدته سيظن القارئ أنه خيال صنعه الكاتب؟

* * *

انتهى وقت العمل، وتهيأنا للعودة إلى منزل مضيفي. اتصل بسائق توكتوك ليصطحبنا، فأخبره السائق بعدم قدرته على الحضور لأنه في مهمة عمل أخرى. اقترحت عليه أن نقف على الطريق الرئيسي فربما وجدنا وسيلة انتقال، فرد سريعًا:

ـ مفيش.

ـ إذن كيف يخرج ويدخل أهل القرية؟

فقال بكل أريحية:

ـ بيمشوا على رجليهم لحد «قصر الجبالي».

مسافة كيلومترين قطعناها ولم نجد وسيلة انتقال، الجميع إما يسير على قدميه وإما يستقل دراجات نارية أو توكتوك مخصوصًا. قبل أن نصل إلى «قصر الجبالي» بقليل انشقت الأرض عن أعداد كبيرة من الفتيات بملابس المدرسة الإعدادية. سألت الطبيب فأخبرني أن طلاب المدارس يمشون الطريق كل يوم من المدرسة وإليها،

لأنهم بالطبع لا يمتلكون أربعين جنيهًا يصرفونها يوميًّا فقط لوسيلة انتقال.

في المساء اصطحبني مضيفي إلى الوحدة الصحية في قرية «قصر الجبالي»، وهناك قابلت الطبيب المختص، الذي حضر من مدينة المنصورة قبل ثمانية عشر عامًا ليستقر به المقام في محافظة الفيوم. وأثناء حوارنا سرد علينا قصة علقت في ذهنه ولم تفارقه منذ حدوثها. قال إن أحد أبناء القرية حضر بطفله إلى الوحدة، وبعد أن أجرى الطبيب الكشف المعتاد قال الأب إنه ترك ابنته في المنزل مريضة، وإنها تعاني من الأعراض نفسها التي يعاني منها الولد، ولما سأله الطبيب لماذا لم يحضرها للكشف قال الأب:

ـ دي بنت يا دكتور، ما عندناش بنات بتكشف.

رد الأب أوحى أن البنت شيء مهمل، غير ذي فائدة، مع موروثات أخرى أنها عورة لا تعرض على الغرباء.

بعد نهاية الحوار كرر الطبيب السؤال نفسه الذي سيطرحه عليَّ الجميع خلال الرحلة:

ـ هوَّ انت بتعمل تحقيق صحفي ولَّا بتكتب إيه بالظبط؟

* * *

عدنا إلى منزل مضيفي، وهناك أخبرني عن قصة يتناولها أبناء «قصر الجبالي» بالعجب، واقترح أن يصطحبني في صباح اليوم التالي لمشاهدة القصة بنفسي، التي يقيم بطلها في مسجد القرية مثل الدراويش، لا سكن له غيره ولا عمل. سألته عن الحكاية فقال:

ـ كان طفلًا في مثل سني تقريبًا بالقرية، مميزًا في دراسته، وحالته الصحية لا شائبة فيها. وعند وصوله إلى مرحلة التعليم الثانوي أصيب في حادثة سيارة، لكنه بعد أن سقط أرضًا قام كأن شيئًا لم يكن. اطمأن الجميع لقيامه وحمدوا الله أن مكروهًا لم يصبه، لكن ما لم يعرفه الجميع هو أن الحادثة سببت ضررًا في الدماغ لم يلمسوه حينها، ظهر تباعًا بعد أن أصاب عقله شيء ظنه الناس مسًّا من الشيطان: كلما مر الوقت ضعف العقل وتراجع. طلبت من أهله أن يذهبوا به إلى مستشفيات القاهرة، لكن شيخًا في القرية يعالج المرضى بالقرآن قال إنه قد مسه الجن وإن علاجه الرُّقية. مرت السنوات وازداد عقله ضعفًا، وأصبح أطفال القرية يلاحقونه في الشارع كالمجذوب، وصار المسجد سُكنى الشاب الذي أصبح مجذوبًا، ولم يعرف أحد حتى الآن ما الذي أحدثته صدمة السيارة بدماغه.

استرعت قصة مجذوب «قصر الجبالي» انتباهي، كان الشاب في حاجة لإجراء فحوصات طبية في الحال لاكتشاف الخلل الذي حدث، لكن قصور الوعي الصحي لدى الأهل في القرية أحاله إلى مجذوب. نظرت إلى الطبيب بأسى وقلت:

ـ يكفيني ما سمعته، ولا أريد الذهاب إلى المسجد لمشاهدة المجذوب!

لكن مضيفي قاطعني قائلًا إن الحكاية لم تنتهِ بعد. هنا اعتدلت في جلستي وانتظرت المزيد، فقال:

ـ لم تسألني عن مصير الشيخ الذي عرض عليهم علاجه بالقرآن وقال إن ما أصاب ولدهم مس من الجن!

تعجبت كيف لم أنتبه إلى مَن كان سببًا في تضليل الأهل وضياع مصير ولدهم، فسألت الطبيب عنه، فقال:

ـ لم يعاقب أهل القرية الشيخ، فأهل الله وخاصته لا يجلبون شرًّا في معتقدهم، ومظاهر اللحية والمِسبحة والمصحف تكفي في القرى لاعتبار أحدهم من أهل الله. أصبحت حكاية العلاج من مس الجن وظيفة الشيخ، وهو للعلم شاب في منتصف العشرينيات، كان يذهب إليه أهل القرية حاملين النذور، طالبين الشفاء

ببركة دعائه، لكن أحدًا لم يُشفَ، والمجذوب لم يعد له عقله. وأصبح لدى المُعالِج بالقرآن دكانة لتجارة المواد الغذائية على شارع الهرم الرئيسي بمحافظة الجيزة، في منطقة من أغلى الأماكن في المحافظة، وكل ذلك من أموال أهل القرية. لك أن تتخيل شابًّا في تلك السن وقد اشترى دكانة وبضاعة بمئات الآلاف، في حين لا زال يعالج بالقرآن، ولا زال أهل القرية ينتظرون بركته التي لا تحل أبدًا.

صَمت الطبيب لدقيقة ثم طرح السؤال نفسه مرَّة أخرى:

ـ هوَّ انت بتكتب إيه بالظبط؟

السؤال يتكرر، وإجابته أخشى أن أستعيد ملابساتها. لكن، ليكتمل كتاب «رحلة يوسف»، يجب أن أوضح متى كانت البداية، يجب أن أحكي لماذا سافرت بين المحافظات لأسمع حكايات الحياة والموت في بر مصر.

* * *

بدأت الحكاية في السابع عشر من أبريل ٢٠١٤، الساعة السابعة مساء، في مستشفى الحكمة، الدور الأول. أقف أمام باب العمليات في انتظار مولودي الثاني: يوسف سامح فايز.

اليوم الأول

الطبيب يصرخ في الواقفين:

ـ الحالة دي لازم تدخل عمليات فورًا!

يهرول الجميع. فحوصات الأشعة التي أجريناها في المستشفى تظهر أن يوسف في وضعية لا تسمح بولادة طبيعية. على باب غرفة العمليات أرسلتُ ابتسامة خفيفة لزوجتي حاولتُ أن أداري بها قلقي. تقبلَتها واختفت خلف الباب، في حين جلستُ لا أعرف ماذا أفعل. أخي الأكبر حضر لتوِّه بصحبة والدتي، تركته يفعل كل شيء، واكتفيت بالجلوس أنتظر صرخة المولود الجديد. ثلاث ساعات كاملة داخل غرفة العمليات، خرج بعدها يوسف محمولًا على يد ممرضة تجري تجاه غرفة الحضَّانات بالمستشفى.

كل ما حدث سطرته في يوميات: بعضها كُتب أيام مرض يوسف، وأنقله لكم كما كتبته، والبعض الآخر كُتب بعد وفاته في العاشر من يونيو ٢٠١٤، حين قررت أن أذهب في رحلة إلى مدن الصعيد لأشهد على وضع المستشفيات والوحدات الصحية في القرى والنجوع.

كتاب يوسف

اليوم الثاني

أخبرني الطبيب أن ولادة يوسف كانت خطرة، وأننا لو تأخرنا ساعة واحدة عن موعد الولادة لكنا الآن نجري لإنقاذ الأم فقط، فكان يوسف سيموت في بطنها. سألت الطبيب كيف أن ثلاثة أطباء رأوها في مستشفى قصر العيني وأخبروني أنها بحالة جيدة، وطلبوا مني أن أحضر في اليوم التالي، وقالوا إن الأم بخير، وإنها ليست في حاجة لمتابعة الآن!

تذكرت يوم أمس، قبل ولادة يوسف بساعات، وأنا أقف على باب مستشفى قصر العيني أقول لزوجتي:

ـ لن نعود إلى البيت.

كنت أرى حياةً ترتسم على وجهها، ولم أكن أعتقد أن هذه الحياة الجديدة ستنتظر لليوم التالي. تلقيت مكالمة هاتفية من صديقة علِمَت بالحالة، فأرسلتني إلى مستشفى الحكمة. قالت:

ـ لن يطلبوا منك مالًا، أعلمهم فقط أنني من أرسلتك.

كشف الطبيب وقال الكلام نفسه:

ـ لتحضر في الغد، الآن ليس موعد ولادة.

جلست بجوار زوجتي وقلت:

ـ لن نعود إلى البيت.

ذهبت إلى إدارة المستشفى وطلبت من المسؤول أن تُعرض زوجتي على طبيب آخر، وكان الخامس الذي كشف عليها في ذلك اليوم، لكنه الوحيد الذي خرج من غرفة الكشف بحال غير التي دخل بها.

اليوم الثالث

طلب مني أخي أن نُلحق يوسف بحضَّانة في مستشفى حكومي، فالمصاريف في المستشفى الخاص مرهِقة. لكننا على مدار يومين لم نجد حضَّانة متاحة في أيٍّ من مستشفيات القاهرة الحكومية. العبارة نفسها تقريبًا قالها الطبيب في كل مستشفى حكومي سألنا فيه عن حضَّانة:

ـ هناك قائمة انتظار لو أردتم التسجيل. فور أن تتوفر حضَّانة نُعْلِمكم.

أثنى طبيب الأطفال الذي تابع حالة يوسف في المستشفى الخاص على موافقتنا بوضع الطفل في حضَّانة مستشفاهم، وقال إن تصرفنا أنقذ يوسف، لأنه كان يجب أن يوضع في حضَّانة في خلال ست ساعات من ولادته، وإلا لم يبقَ على قيد الحياة. كنت أود أن أقول للطبيب: «لكن الحضَّانة بمئات الجنيهات في الليلة الواحدة لديكم! ماذا لو لم أكن أحمل مالًا في جيبي؟ ماذا لو لم تتوسط لي صديقة ليوضع ولدي في الحضَّانة من دون دفع مقابل؟ هل كنتم ستتركون

الطفل يموت؟». تذكرت قائمة انتظار الأطفال التي أخبروني عنها في المستشفيات الحكومية، وتساءلت: كم من بينهم سيظل حيًّا حتى يحين دوره؟

اليوم الرابع

كلما سألت الطبيب عن حال يوسف قال إنه بخير، «مسألة وقت لا أكثر». قال إن الماء الذي كان يغلف يوسف في بطن أمه جف، وإن جسد يوسف التصق بالرحم في وضعية غير وضعية الولادة، وأضاف أن الأكسجين الداخل للطفل نقص قبل أيام من ولادته. تعجبت كيف لم ينتبه كل الأطباء الذين مر عليهم يوسف أن هناك خللًا ما ـ خللًا ظاهرًا من السهل إدراكه!

في نهاية اليوم خرجت زوجتي من المستشفى، صحبتها إلى البيت تاركًا يوسف في غرفة الحضَّانات. لم يكن يحرك ساكنًا، حتى بكاؤه كان صامتًا، تقلصات خفيفة في الوجه توحي أن هناك بكاء.

اليوم الخامس

أخبرني الطبيب أن الحالة مستقرة، وهو يود فقط لو يرضع يوسف من ثدي أمه ليطمئنوا عليه قبل خروجه من المستشفى. ذهبت إلى الممرضة التي تتابع الحالة وأعطيتها ورقة مالية مقابل أي معلومة عن يوسف غير تلك التي أخبرني بها الطبيب. ذلك الطفل الذي لا يحرك ساكنًا، من المؤكد أنه ليس بخير! قالت الممرضة إن حال يوسف ليست مُطَمئنة، ولم تزد على ذلك.

اليوم السادس

حَضرْت بصحبة زوجتي إلى المستشفى وهي تتسند على يدي لأنها لم تُشفَ بعد من آثار جراحة الولادة القيصرية. قضَت ساعة كاملة داخل غرفة الحضَّانات، خرجَت بعدها دامعة العينين. اقتربتُ منها لأسألها. قالت:

ـ شفتاه لا تستطيعان أن تقبضا على ثديي!

في الخلفية رأينا يوسف في الحضَّانة وخراطيم كثيرة مدلاة من جسده، أحدها وجد طريقه إلى الفم سبيلًا للرضاعة الصناعية.

اليوم السابع

لا فائدة من حضور زوجتي إلى المستشفى بعد الآن. آثار الجراحة والحركة تؤلمها، ويوسف تعجز شفتاه أن تقبضا على ثدييها. جئت وحدي أنتظر جديدًا.

اليوم الثامن

لا جديد.

اليوم التاسع

أخبرني الطبيب أنه يمكنني اصطحاب يوسف إلى البيت، وأن الحالة مستقرة، لكنه قال إنه غير مسؤول عن تطورات الحالة لو خرجت من الحضَّانة قبل موعدها. تعجبت كيف يسمح بخروج يوسف من المستشفى مطمئنًا، ثم يتبرأ من تطورات الحالة! طلبت منه اتخاذ أي إجراء جديد قد يمكِّننا أن نكتشف لماذا لا يحرك يوسف ساكنًا وهو في يومه التاسع. أجابني:

ـ في الغد نجري أشعة على المخ وفحوصات طبية لنعرف السبب.

تعجبت مرَّة أخرى، وتساءلت: لماذا لم يفعل ذلك من اليوم الأول؟

اليوم العاشر

في انتظار نتيجة الأشعة والفحوصات.

اليوم الحادي عشر

أكثر من عشرة أيام في مستشفى خاص عجز طبيبه المسؤول عن اكتشاف نزيف في المخ واستسقاء في الدماغ تسبب في شلل أطراف ولدي، ثم قرر إجراء أشعة على الدماغ وفحوصات بعد أن رفضت طلبه باستلام الطفل والتوقيع على ورقة تفيد بمسؤوليتي وتُخلي طرف المستشفى. كلمات الطبيب دبت في قلبي رعبًا. رفضت. طلبت التيقن من حالة طفلي.

اليوم أخذني الطبيب جانبًا ليخبرني أن يوسف وُلِد بكلية واحدة، وأن هناك نزيفًا في المخ، إلى جانب استسقاء في الدماغ. شرح أن المنطقة المسؤولة عن تفريغ المياه الزائدة حول المخ معطلة، وبالتالي تتجمع المياه لتضغط على دماغ يوسف ما يعطل عمل الدماغ وعمل الجسم بالكامل. أخبرني الطبيب أن الحالة خطرة جدًّا، ودوَّن عنوان واحد من أكبر أساتذة علاج الدماغ في مصر ونصحني الذهاب إليه اليوم وليس غدًا.

اليوم الثاني عشر

نفد المال، ووهن الجسد، وأصابني اليأس، لكن مكالمة هاتفية من أصدقاء ساعدتني على إكمال المسير، وحُلت مشكلة المال.

جلس الطبيب على كرسيه وخط في ورقةٍ حالة ولدي بعد أن شاهد الأشعة المقطعية. نظر إلى هيئتي شزرًا ثم عاد لإكمال ما يكتب، ترك قلمه وقال:

ـ إنت شكلك حد على قدك، وعلاج يوسف هيكلفك أكبر مما تطيق، ممكن تبيع اللي وراك واللي قدامك وفي الآخر هيموت!

في الأيام العشرة الأولى، كنت أميل إلى التخاذُل وعدم إدراك المسؤولية التي أتحملها، كأنني كنت طفلًا يهرول بطفل آخر في محاولة إنقاذه من الموت. إلا أن كلمات الطبيب أيقظت بداخلي إرادة على المواجهة فارقتني لسنوات، فرأيتني إنسانًا آخر. ردًّا على كلماته التي صدق فيها، أخبرته:

ـ هابيع اللي ورايا واللي قدامي، بس يوسف يعيش!

هل كان الطبيب يعلم أنه لا يوجد أصلًا ما يسمى «ورايا وقدامي»، وأنني أهرول بيوسف في المستشفيات وكل ما أملكه في الدنيا بضع مئات من الجنيهات اقترضتها منذ ساعات لأدفع ثمن الكشف لدى الطبيب الكبير؟ لكن منذ متى يحدد المال حيوات الناس؟ نحن من نصنعها ليس هو!

كتب الطبيب توصية على ظهر روشتة الكشف لأحد تلامذته بمستشفى أبو الريش، أكد في البداية أن من الصعب انتظار قبولي في القسم المجاني بالمستشفى، وأن القسم الاقتصادي هو الأنسب، هززت رأسي بأنني مستعد، وخرجت من العيادة الخاصة في الثامنة مساء متوجهًا صوب مستشفى أبو الريش مباشرة.

* * *

أهرول بين المكاتب في مستشفى أبو الريش لإنهاء أوراق يوسف، يصعب أن تجد أحدهم في ذلك الوقت، وكأنك تتجول في مقابر لا صوت فيها ولا حتى همهمات. بحثت لأكثر من أربع ساعات حتى أتمكن من إيجاد شخص يحمل عني طفلًا لا يحرك ساكنًا.

للمرَّة الأولى منذ زواجي، شعرت بالعجز أمام طفلي وزوجتي، حين طلب مني موظف الحسابات تأمين دخول الطفل للدور الخامس. طأطأت رأسي أمامهما وأخذت ألملم

كل ما أحمل في جيوب بنطالي حتى أكملت نصف المبلغ بالكاد. نظرة من الموظف أدركَ خلالها الموقف، فقبل المبلغ على وعد بإحضار الباقي في الغد، وأشار بأصابعه إلى ورقة معلقة على الحائط تمنع قبول أحدهم من دون دفع مقابل التأمين، وابتسم للتخفيف من حدة الموقف قائلًا:

ـ ولا يهمك يا ابني، أنا كمان أب، بس بكرة الصبح الله يكرمك عشان محدش يرخم علينا!

بالكاد تبقَّى معي ما يكفي لعودتي إلى البيت.

* * *

شقَّت صرخة أحدهم صمت الدور الخامس. هرول الجميع من الغرف إلى النوافذ، تركني موظف الحسابات، وأسرعت إلى مصدر الصرخة. شاهدت المسألة فلم أصدق: على باب المستشفى وقف قرابة خمسة عشر فردًا من قوات الأمن الإداري في المستشفى يضربون بأحذيتهم رجلًا غارقًا في دمائه. توقعت أن يكون لصًّا أو محاولة إرهابية لتفجير المكان ـ من المؤكد أن حدثًا جللًا دفع هؤلاء جميعًا إلى السعي لقتل ذلك الرجل المنكفئ يحمي رأسه من ضرباتهم. لكن حين سألت الناس ماذا يحدث كانت الفاجعة.

أصيب طفل في حادثة واحتاج إلى تدخل جراحي عاجل. حضر والده إلى المستشفى، وانتظر أمام غرفة العمليات ليطمئن على ولده. ثم حضر عم الطفل إلى باب المستشفى، فقال له أفراد الأمن إن الزيارة ممنوعة بعد السابعة. أجاب الرجل أنها ليست زيارة، بل هو يريد الوقوف مع أخيه الذي يخضع ابنه الآن لعملية جراحية. تزمت أفراد الأمن رافضين دخول الرجل، فتشنج وهاج فيهم وشتمهم، فما كان منهم إلا أن تجمعوا عليه ليسقطوه أرضًا، ولم يقم من مكانه إلا محمولًا في عربة الإسعاف، لنرى طفلًا في غرفة العمليات، في الوقت نفسه الذي يدخل فيه عمه مستشفى قصر العيني المجاور لأنه أراد مساعدة أخيه في حادث جلل أصاب ولده.

هكذا استقبلني مستشفى أبو الريش للأطفال، كأنه ينذرني من مغبة أي تعالٍ، أو محاولة للمرور من دون إذن. في تلك اللحظة قررت أن أسير داخل المستشفى حاملًا درعَين مهمَّين: الأول هو الورقة النقدية فئة الخمسة جنيهات التي كانت تفتح كل الأبواب، والثاني هو أرقام هواتف جميع المعارف المهمين، أحدثهم في كل ثانية، طالبًا منهم التدخل لإزالة أي معوق يطرأ.

اليوم الثالث عشر

أُجريت ليوسف أول جراحة في المخ اليوم. هي جراحة بسيطة، تمهيدًا لجراحة ثانية بعد فترة. ومن الدروس التي تعلمتها اليوم في مستشفى أبو الريش في اليوم الثالث عشر ليوسف على كوكب الأرض:

١ ـ الذي لم يُربِّه والداه يربيه الجيش أو مستشفى أبو الريش أيهما أقرب.

٢ ـ الصبر مفتاح الفرج، والبرود مفتاح أبو الريش.

٣ ـ لقد ولدتنا أمهاتنا أحرارًا ولم تلدنا عبيدًا نباع ونشترى، إلا إذا كان لنا حاجة نقضيها في أبو الريش.

٤ ـ وأنت مقبل على أبو الريش اترك كرامتك على الباب، ولو وجدت تركها صعبًا فاحرقها واحرق نفسك معها أيضًا.

٥ ـ أبو الريش مقبرة الغزاة.

٦ ـ لا تعاند موظف الأمن في أبو الريش. نفذ أوامره بالحرف.

٧ ـ لا ترتكب خطيئة البحث عن الدكتور المسؤول في طوابق مستشفى أبو الريش. الطبيب هو من يجد ولي أمر المريض دائمًا.

٨ ـ لا ترتكب خطيئة أن تسأل أي شخص من الموجودين حولك عن أي مسألة مبهمة في أبو الريش. فلن يجيبك أحد.

٩ ـ املأ جيب بنطالك بالعملات الورقية فئة الخمسة جنيهات حين تكون في أبو الريش. إذا كانت لك حاجة تقضيها هناك فسوف تعرف سر العملات الورقية وقوتها.

١٠ ـ يجب أن تكون رياضيًا وتتمتع بصحة جيدة تمكِّنك من الحركة سريعًا إن كانت لك مصلحة في أبو الريش. حين تذهب إلى هناك ستعرف هذا السر أيضًا.

١١ ـ لا ترتكب خطيئة الاعتماد على ممرضة في أبو الريش. اعتمد على نفسك وعملاتك الورقية.

١٢ ـ لا ترتكب خطيئة تضخيم ذاتك والحديث عن عائلتك العريقة وعلاقاتك القوية. مهما كنت غنيًا أو من كبار القوم فستجد هناك من يعيدك إلى الواقع لترى الوجع الوحيد الذي يشترك فيه الغني والفقير على أرضية مستشفى أبو الريش.

١٣ ـ لو اضطرتك الحياة أن تذهب إلى أبو الريش، فخذ من الأمثال الشعبية اثنين يكونان لك عونًا في رحلتك: «تعب ساعة ولا كل ساعة»، و«لو كان ليك عند أبو الريش حاجة قوله يا سيدي وسيد اللي خلفوني».

اليوم الرابع عشر

لا جديد.

اليوم الخامس عشر

«وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

اليوم السادس عشر

اليوم دخلت مع يوسف في جدلية أخذت وقتًا طويلًا من الحوار. قلت له:

ـ هابطل أكتب يوميات عنك تاني.

ولما سألني عن السبب شرحت موقفي:

ـ بعض الأصدقاء بيشوفوا إن دي أمور خاصة، وإن الإفصاح عنها للآخَر يُعتبر متاجرة بالألم، أو ابتزازًا لعاطفة الآخر، أو سهوكة فارغة.

على غير العادة عبس يوسف وقال لي:

ـ يا والدي اللي إيده في الميه مش زي اللي إيده في النار. الفيس بوك ده صرخة الغلابة، هوَّ احنا لينا مكان غيره نفضفض فيه؟

استغربت من ردة فعل الولد، وهو لم يكمل الستة عشر يومًا. نظرت إليه بإمعان، فقال:

ـ ده غير إن أذواق الناس مختلفة، صوابعك مش زي بعضها،

دا انت يا راجل عايش في زمن مفيش اتنين بيتفقوا على حاجة، وكل واحد شايف نفسه صح والتاني خاين. جت على حتة بوست بتكتبه على الفيس آخر اليوم تنفِّس فيه عن نفسك بعد ساعات من التنطيط بين الدكاترة زي الأراجوز!

في النهاية اتفقت مع يوسف أن أستكمل الكتابة. كان له فقط تعليق على النبرة العاطفية التي أكتب بها. قال:

- مثلًا بوست «أبو الريش مقبرة الغزاة»، إنت فضلت تشتم وقلت ييجي ١٣ حاجة معذباك في المستشفى، لكن نسيت إن مستشفيات أبو الريش، سواء مستشفى المنيرة أو المستشفى الياباني، بتكشف بالمجان على ملايين الأطفال، حتى مستشفى أبو الريش الاقتصادي اللي أنا محجوز فيها بتاخد مقابل يُعتبر نص اللي ممكن تدفعه في مستشفى خاصة من الرخيصة كمان، ده غير إنك ما ذكرتش كلمة جَراح المخ والأعصاب اللي قالك إن أبو الريش هي المستشفى الوحيدة في مصر اللي ممكن تعالج حالتي، يعني انت عاوز مستشفى بتستقبل آلاف الحالات يوميًّا تشتغل بكفاءة ١٠٠٪؟! ما هو لازم يبقى فيه وقعات، لو كنت عاوز تهاجم كنت هاجمت الأنظمة الحاكمة اللي تقاعست عن تطوير المستشفيات دي عشان تقدر تكفي الجَرْمَأ ده كله!

اليوم السابع عشر

اليوم إجازة من الذهاب إلى المستشفى. أخبرني الأطباء أن الحالة مستقرة، وأنهم سيحددون، بعد ثمانية أيام، إن كان يوسف بحاجة إلى عملية ثانية لتركيب صمام في المخ أم لا. حينها سيخرج من المستشفى. فكرت في استغلال تلك الهدنة للذهاب إلى السينما. أرى في السينما والمسرح دائمًا ملاذًا حين تضيق بي السبل، فهما ليسا مجرد ترفيه، بل لهما أبعاد أخرى في إدراك النور في الحياة التي نعيشها. ذهبت إلى منطقة وسط البلد؛ حيث تتمركز دور عرض السينما في القاهرة، واشتريت تذكرة لمشاهدة فيلم «الخروج للنهار». كانت المرَّة الثانية التي أشاهده فيها. شاهدت أيضًا فيلم «مراتي وزوجتي» للفنان رامز جلال. وبمقارنة بسيطة أدركت الفارق بين صناعة السينما وصناعة «البسطرمة». جذبني فيلم «الخروج للنهار». كنت مستمتعًا للمرَّة الثانية بأداء سلمى النجار في دور الأم. وبعد ذلك الفيلم، أخذت دنيا ماهر لنفسها موقعًا متميزًا بين النجوم. هو فيلم يشاهَد ولا يوصف.

البعض قال إنه فيلم سيِّئ! مع احترامي لذائقة المتلقي بالطبع، أثق أن هؤلاء من أنصار أفلام عبده موتة وسالم أبو أخته. مرَّة أخرى، كل إنسان حر في ذائقته الفنية، أنا بدوري أشاهد كل الأفلام، لكن في «الخروج للنهار» مستوى وعي مختلف. إذا كنت تلمس في نفسك وعيًا وفهمًا فشاهده وأنت مطمئن. الجديد في المسألة، والذي عرفته من مقال كتبَته هالة لطفي، مخرجة الفيلم، في جريدة «التحرير»، هو أن أحمد لطفي، الذي قام بدور الأب، ليس والدها، المسألة فقط مجرد تشابه أسماء. ومع أن هذا أول دور سينمائي يقدمه، فقد أداه باقتدار شديد. عرفت أيضًا من المقال أن أحمد لطفي مات منذ فترة، بعد أن طردته صاحبة العقار من شقته في ميدان التحرير، التي عاش فيها عمره كله. مات بعد أن خلد اسمه في فيلم سيظل في ذاكرة التاريخ. اسم أحمد لطفي تشابه عليَّ مع إحدى شخصيات كتاب «كراسة التحرير» للكاتب مكاوي سعيد، والصادر عن الدار المصرية اللبنانية. بحثت عنه كثيرًا في مكتبتي لكني لم أجده. سأذهب غدًا إلى المكتبة لأحصل على نسخة وأتأكد. كتب مكاوي سعيد في «كراسة التحرير» عن أحمد لطفي الصحفي بـ«الأهرام إبدو» الذي عاد إلى شقته أثناء ثورة يناير فوجد الشباب قد احتلوها، فتركهم يقيمون فيها. تكلم مكاوي كثيرًا عن أحمد لطفي، وذكر

حديثًا، لو صح أن الاثنين هما الشخص نفسه فستكون هذه مفارقة عجيبة. شخص يُخلد نفسه في آخر ثلاث سنوات من عمره. معنى الأمل يتجلى في شخص أحمد لطفي: هو البطل الحقيقي في فيلم «الخروج للنهار»، والبطل الحقيقي في فيلم أكبر هو الدنيا التي نعيشها. الأمل الذي جعله يجتهد حتى آخر لحظة من عمره من دون أن يقول: «أنا عجزت»، «أنا كبرت»، «أنا أموت». وقس على ذلك أيضًا كل أمور الحياة، إنه الأمل يتمثل في «الخروج للنهار».

وأنا أفكر في أحمد لطفي ومقال هالة لطفي شاهدت يوسف. ما لا يعرفه البعض هو أن كل الدلائل كانت تقول: «يوسف ميت». بعد عشرة أيام أظهرت الأشعة حاجته إلى تدخل جراحي سريع، ولا يزال بحاجة إلى تدخل جراحي آخر. كل ذلك في أول سبعة عشر يومًا له في الدنيا. في كل لحظة مرت كنت أدخل في معارك مع أهلي، الذين يرون أن حالة يوسف ميؤوس منها، وأنه ميت، وأن لا فائدة من محاولات إنقاذه. لكن في كل لحظة كنت أستمد القوة من يوسف الذي يناضل من أول يوم. وبعد سبعة عشر يومًا من هذه التجربة تغيرت مسائل عدة في حياتي، واكتشفت مدى ضآلة مشاكل كنت أعتبرها مهمة، وفهمت

أنها لا تستحق التفكير فيها، وفهمت أن الإنسان يجب أن يصل، طالما تمسك بالأمل وقدَّم المطلوب منه بإصرار حتى آخر لحظة، المهم ألا يترك الإحساس باليأس يتسرب إلى نفسه.

وليس شرطًا أن تشاهد النتيجة في حياتك. أحمد لطفي مات قبل أن يعيش تجربة نجاح فيلم «الخروج للنهار». أحمد لطفي مات قبل أن يفرح بطبع كتاب يسرد جزءًا من سيرته. شاهدوا فيلم «الخروج للنهار»، وتعلموا الأمل المنبعث من رحم المعاناة التي عاشها أبطاله.

اليوم الثامن عشر

* حالة يوسف مستقرة.

* قابلت الأستاذ مكاوي سعيد وأكد أن أحمد لطفي الذي كتب عنه في «كراسة التحرير» هو نفسه بطل «الخروج للنهار»، وقال إنه كان هناك مشروع أن تتحول سيرته المكتوبة إلى سيناريو فيلم، لكنه مات قبل أن يرى المشروع النور.

* شكرًا هالة لطفي على فيلم «الخروج للنهار».

* «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا».

* «المحَبَّةُ لا تَسْقُطُ أبدًا».

* عرفت اليوم بالصدفة قصة وفاة شاب في قصر العيني الفرنسي بسبب خطأ في التخدير أثناء العملية على حد قول والده. المدهش في القصة أن والد الشاب مطالَب

بمائة وثمانين ألف جنيه بقية تكاليف عملية زرع كلية لابنه الذي مات.

* «وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ».

اليوم التاسع عشر

في واقعة أظن أنها لم تحدث من قبل في مستشفيات أبو الريش، وكان ليوسف الفضل فيها، أرسلت الشاعرة أمل درويش باقة ورد إلى يوسف. المضحك في المسألة اندهاش الممرضة ورفضها استلام الورد. لكن بغض النظر عن أي شيء كانت باقة الورد أجمل حدث صادفني اليوم.

اليوم الثاني والعشرون

أحدث نفسي وأسألها: أنى له بذلك التماسك؟ ربما كانت صرخة الألم لا يزال صداها يتردد في جنبات بيته، في حين أنه يمرر أصابعه على حروف الكيبورد ليشكل بها كلمات تعبر عن الأسى الذي يحيط به في تلك اللحظة.

في الغالب لم أكن أعير بعضهم اهتمامًا، في أحيان أخرى كنت أقف لبضع ثوانٍ أمام جُمل الأصدقاء الحزينة ـ أوقفني أمامها واجب صداقة تجمعنا لا ذلك الألم الذي أستغربه. كيف تكتب «ماتت أمي»، أو «أصيب أخي»، أو «أتوجه إلى غرفة العمليات الآن»، وأنت تحمل بين يديك حزنك؟! كيف تملك القدرة على التماسك؟! الوقوف بقدم غير مرتعشة؟! لملمة أشلائك المتناثرة خلف حزن يعتصرك ويجعل الرؤية ضبابية؟!

كانت نظرة حمقاء لم أدركها إلا بعد أن أصبحت أنا الآخر أهرول بحزني في أروقة المستشفيات ولا أجد من يطبب قلبي! رجل يضحك، آخر يباغتك بنظرات

لا تقدر حجم عثرتك، وذلك الذي يعاملك كأنك ذاهب في نزهة لا لتنجو بطفل لا زال في ساعاته الأولى على الأرض، طفل يمرض ويشق مشرط الطبيب رأسه في يومه الثالث عشر، في حين تجد همهمات من حولك ضاحكة، مبتسمة، بل أكثر من ذلك حين يهرول عمال المكان طالبين نفحة من حافظة نقودك، قائلين بصوت واحد: «مبارك البيه الصغير، أين حلاوة المولود؟». تحاول أن تتملص من قبضتهم، مهرولًا إلى الطبيب كي يطمئنك ولو بعبارة كاذبة، فيشيح بوجهه بعيدًا، يريد أن يلحق آخر ينازع الموت، أو ربما مل من كثرة الأسئلة وتشابه الإجابات.

تدس يدك الغاضبة في حافظة نقودك، وتخرج نقودًا صارت أهون شيء لديك، وتمررها على أيديهم جميعًا، ثم ينصرفون، ولا تجد حتى كلمة مواساة تكون لك سلوى في ذلك اليوم. حتى وإن كانت مجرد كلمة، لكنها تكفي لتتكئ عليها، سند تصل به حتى إلى غرفة مولودك المريض قبل أن تسقط، أو تتساقط رويدًا، وتقاوم من أجل عيون أخرى تريد أن تراك قويًا لأنك رب البيت.

في تلك اللحظة التي تدخل فيها بيتك بعد ساعات من الهرولة في عالم من الصُّم لا يُقدِّر ما أنت فيه، تحاول كالمجنون أن تبحث عن شيء تُخرج فيه ألمًا يضغط

على كاهلك يكاد يصرعك. يجب أن تظل مبتسمًا أمام زوجتك. إياك أن تضعف أمام والدتك. الأب لا يجب أن يسقط. في تلك اللحظة حين تجد أصابعك تذهب إلى ورقة بيضاء على مكتبك، أو أزرار الكيبورد أمامك، ثم ترى نفسك تسترسل في الحكي، فقط مجرد الحكي، تشعر أن هناك عيونًا أخرى تقرأ، قلوبًا تنقبض، آهات تخرج تشاركك الألم، كاهلك تخف أثقاله، ربما في لحظة من العزلة تقتنصها بعد أن تجد أسرتك طريقها إلى النوم فتسقط دمعة أو اثنتين في غفلة منك، غير مسموح لك بأكثر من ذلك، فالدمع المنهمر قد لا يقف، تذكر أن الأب يجب ألا يسقط.

تكتشف في النهاية أن ملاذك الوحيد أصبح تلك الكلمات التي تسطرها. بعد أيام من الكتابة تجد نفسك تنتظر تلك الساعة، في نهاية اليوم، التي تجلس فيها أمام الكيبورد لتداعب حروفها فتُخرج من صدرك أثقال ذلك اليوم، فقط كي تتمكن من النوم وتكون قادرًا على مواجهة يوم آخر، وربما أيام أخرى، فأنت لا تعرف متى تنتهي الحكاية التي تسطرها.

اليوم الثالث والعشرون

لما تجلى النهار أدركت أن البسمة سبيل.

اليوم الرابع والعشرون

سجلنا بيانات شهادة ميلاد يوسف. في وسط الزحمة كنا نسيناها. تململت الموظفة في البداية. قالت إنه لا يجوز استخراج شهادة الميلاد بتاريخ الولادة الحقيقي، ١٧ أبريل، لأنها مضت عليها فترة. ثم مزقت إخطار الولادة الذي حصلت عليه من المستشفى لتسهيل استخراج شهادة الميلاد، وكتبتْ آخر بتاريخ ١ مايو. أي أن يوسف سيحتفل بعيد ميلاده يوم عيد العمال! ولدِي كُتب عليه الشقاء حتى في يوم مولده! ربما يثبت موقفًا من أول يوم له في الدنيا ويقول: «أنا في صف المقهورين والبسطاء»! أظن يوسف ولِد ماركسيًّا على الفطرة، فأبواه إما «يلبرلانه» وإما «يؤخونانه».

اليوم السادس والعشرون

نافذة زجاجية تمنعني عن يوسف، وهي أيضًا وسيلة التواصل الوحيدة معه. يوسف داخل حضَّانة بغرفة الرعاية المركزة في الدور الخامس من مستشفى أبو الريش الاقتصادي، ومن نوافذ الغرفة الزجاجية نتبادل النظرات مع قاطني تلك المربعات الشفافة المغطاة بأسلاك مختلفة: واحد هو وسيلة الغذاء، آخر هو السبيل لوصول الدواء، وأسلاك أخرى أجهلها، لكن المؤكد أنها تساعد ذلك الطفل على ممارسة حياته بطريقة طبيعية. في الظهيرة عندما يفتح المستشفى أبوابه للزيارة، ليس مستغربًا أن تجد بعضهم يفترش الأسفلت للجلوس، ربما للنوم أيضًا: أسرة بأكملها، أتوا من سوهاج بطفلهم، على أمل أن يجدوا الشفاء من دون أن يكلفهم ذلك ما لا يتحملونه، ولأنهم لا يتحملون فلا سبيل سوى افتراش الأرض، ذلك أنهم لا يملكون مقابل السكن في فندق أو استئجار شقة.

أول طريق لحمد الإله، إن كنت من سكان المحافظات، أن

تكون قادرًا على استئجار سكن في القاهرة، حتى تتجنب وأسرتك سماع شقشقة النهار على رائحة عادم السيارات وصوت أقدام المارة على الرصيف المجاور لتلك البقعة التي تمدد جسدك عليها.

في الأيام الأولى كنت أمط شفتيَّ مشفقًا على عشرات الأسر الفقيرة التي يبدو من هيئتها أنها بالكاد تملك ثمن تذكرة القطار، ربما يجهلون من أين لهم بتذكرة العودة، لكنهم يفكرون فقط بعدم إمكانية العودة بطفلهم المريض. كل شيء يهون أمام صرخة مكتومة من طفل لا يقوى على إخراجها، وأنت تعلم أن شيئًا يأكله رويدًا رويدًا! تذل النواصي أمام دمعة جفت على عتبة عين أطفال في أيامهم الأولى وهم يقاومون أمراضًا تعجز شوارب الرجال على الوقوف أمامها بقدم ثابتة. لكن بمرور الوقت تتلاشى الشفقة ويحل مكانها شعور بالقوة لأُسر لم تُلقِ أطفالها خشية الفقر، الله يرزقهم وإياهم.

صرت أحفظ تلك التفاصيل التي لا تتغير: قبل أن أدلف من باب المستشفى أُخرج ورقة مالية فئة الخمسة جنيهات ثمن تذكرة الزيارة، أعطيها للموظف بشكل آلي، ولا ألتفت إلى المصعد فهو دائمًا معطل، وآخذ نفسًا عميقًا وأبدأ في عد درجات السلم حتى الدور الخامس، أبحث دائمًا عن

شيء يلهيني ولا أسرع في الصعود، أحتفظ بقوتي لأنني سأعد درجات السلم مرات عدة صعودًا وهبوطًا تلبية لطلبات الطبيب ـ أوراق أنهيها، أدوية لا تتوفر بصيدلية المستشفى ـ وربما للمساعدة في قتل الوقت، أذهب إلى النافذة الزجاجية وألقي السلام، تتلمس عيناي الطريق ليوسف فأطمئن أنه لا يزال يلهو بأطرافه.

صار أهل المكان أكثر ودًّا من قبل. أنا الآن على مشارف الأسبوع الثالث داخل المستشفى، أصبحت أعرف كل شخص وطبيعته، وأعرف كيف أسأل، ومتى أنتظر الإجابة، ومع بسمة خفيفة تلتصق بوجهي بطريقة آلية عند رؤية الطبيب، تزول بعض الحواجز، تعلمت كيف ألصقها حتى في أحلك الظروف. يخطئ من يظن أن الصوت العالي يحل معضلة، بل إنه يزيدها تعقيدًا. أعرف أنك أب مكلوم، لكن أعرف أيضًا أنك لست بطبيب، فلا تظن أنك ستقدِّم شيئًا يعجز هو عنه. ما أسهل الصوت العالي، ولكن الطبيب هو وحده الذي يفهم لغة الطفل في أيامه الأولى ويدرك دواء الداء!

تعودت أن أمارس تلك الطقوس اليومية، وتعودت أن أطرق باب الطبيب لأسأله السؤال المعتاد: «مش عاوز مني حاجة؟». وددت لو كنت أصبحت طبيبًا لأمد يد

المساعدة. وتعودت أيضًا ألا أنتظر بسمة مماثلة لتلك التي ألصقها على وجهي، فكل من حولي لا يدرك أنني أنا، الواقف أمام النافذة الزجاجية أشير بأصابعي لأحد قاطنيها، أب لهذا الطفل الذي زار غرفة العمليات في يومه الثالث عشر، ولا يدركون أنه سيزورها مرَّة أخرى.

اليوم السابع والعشرون

البحث عن السلوى في هذا الموقف هو دائمًا الحل. أرقب أحدهم في محيط الدور الخامس. أنتظر الفرصة المناسبة ومن ثَمَّ أقدم نفسي:

ـ ابني في رعاية المخ والأعصاب.

فيجيب:

ـ طفلتي مريضة بـ...

في ظروف أخرى قد أسمي ذلك تطفلًا على حياة الآخر، لكن في تلك الحالة نحتاج جميعنا إلى الآخر، إلى أن نشعر أننا لسنا وحدنا في الدور الخامس. أكره الحضور إلى المستشفى في ساعة متأخرة من الليل: صمت يطبق على المكان يزيد شعورك بالعجز، ممر طويل وغرف متجاورة، تتمنى لو سقط شيء لتسمع صوته. زاد من كرهي للمساء في ذلك المكان أن يوسف حضر إلى الدور الخامس في مساء التاسع والعشرين من شهر أبريل.

* * *

ـ ابني عمل جراحة في المخ ولسه هيعمل عملية تاني!

ـ بنتي اتولدت في الشهر السابع، نزلت مش كاملة النمو، تخيل بقالها ٣١ يوم ما حطتش حاجة في بطنها، كله محاليل!

رجل في العقد الخامس من عمره، نحافته تدل على عمل شاق يأكل وزنه فلا يترك له ما ينزع عنه ضعف الجسد، ظهره حمل انحناءة خفيفة ربما من ضربات الزمن، ابتسامته مختلفة، تظهر حقيقية، غير ابتسامتي التي أتصنعها.

أخذت أرفع رأسي نحو السماء، ومن ثَمَّ أدور في مكاني والتوتر يظهر على وجهي، ثم بادرته بالحديث:

ـ ابني بقاله ٢٥ يوم في المستشفى، الأول كان في مستشفى خاصة وبعدين نقلته أبو الريش، الدكتور قال إنه أفضل مكان يعالج الحالة، مفيش مستشفى في مصر تقدر تتكفل بحالة ابني!

ـ هوَّ ابنك عنده إيه بالظبط؟

ـ مياه زائدة على المخ!

ثم بشيء من الأسى تابعت حديثي بعد صمت لثوانٍ معدودة:

ـ الدكتور قال إنه هيركب صمام في المخ لتصريف المياه الزائدة، وهيعيش بيه عمره كله!

صمت الرجل لبرهة، ثم قال بابتسامة خفيفة:

ـ قل الحمد لله، دي حاجة بسيطة!

تعجبت من رده. أردت أن أعيد وصف الحالة ليدرك مدى خطورتها. حاولت أن أكمل، لكنه تركني فجأة وانصرف عندما ظهرت الطبيبة التي تتابع حالة طفلته.

لم تمر دقائق حتى رأيت الطبيب الذي يتابع حالة يوسف، فأسرعت إليه:

ـ آخر تحاليل حضرتك طلبتها مني سلمتها للتمريض إمبارح.

ـ عارف، شفتها النهارده الصبح.

ردد الطبيب الكلمات بهدوء شديد، ثم تركني وذهب إلى غرفته من دون أدنى إشارة. تبعته على أمل أن تسقط منه كلمات تخبرني عما حملته نتيجة التحاليل.

توجه الطبيب إلى مكتبه وأخرج كتابًا من الدرج، رأيته قبل ذلك عند صديق صيدلي ـ معجمًا مفهرسًا يحوي جميع أصناف الدواء. بعد دقائق طالت من التقليب في صفحات

الكتاب، أخرج ورقة وقلمًا وسطر شيئًا بالإنجليزية. وضع الورقة في يدي وخرج من الغرفة:

ـ ابنك عنده ميكروب في النخاع، وهنحتاج المضاد ده، هوَّ غالي شوية بس مفيش غيره لعلاج الميكروب.

اتصلت بصديق صيدلي وأخبرته بالمطلوب:

ـ polymyxin B vial

ـ ما تتعبش نفسك.. مش هتلاقيه!

أغلقت الهاتف وتوجهت إلى الطبيب. دقات متتالية على الباب خرج على إثرها سريعًا.

ـ الدواء مش موجود يا دكتور!

ـ عارف إنه مش موجود في مصر، لكن هوَّ ده الوحيد اللي هيعالج حالة ابنك.

غطت الدهشة وجهي من رد الطبيب. عدت للهاتف. أجريت عدة مكالمات أخبرت خلالها الأصدقاء الذين لهم علاقة بصناعة الدواء وتوزيعه، طالبًا المساعدة. كتبت بضع كلمات على صفحة الفيس بوك، لعل أحدهم يجد الدواء. بعد ٢٤ ساعة من البحث تمكنت من إيجاد بديل للدواء. ذهبت مسرعًا إلى المستشفى وشعور المنتصر

يكلل خطواتي. بعد دقات قليلة على باب الغرفة وجدت طبيبة ولم أجد طبيب الأمس. أخبرتها بالحالة وأعطيتها البديل.

ـ سيبه وفوت بكرة.

تعجبت من ردها، ولأول مرَّة منذ أسابيع علا صوتي قليلًا:

ـ يا دكتورة أنا عملت أراجوز عشان أقدر ألاقي بديل! دورت في سبع دول لحد ما لقيته بالصدفة في مصر واشتريته سوق سودة كأني باشتري حشيش!

ضحكة ساخرة من الطبيبة واستخفاف بعبارة «سبع دول»:

ـ إزاي يعني؟! سافرتهم كلهم؟!

ـ فيه حاجة اسمها فيس بوك وإنترنت يا دكتورة!

ـ قلتلك بكرة هارد عليك! الصيدلي مش موجود وهوَّ اللي هيحدد البديل ينفع ولَّا لأ! والولد ياخد جرعة قد إيه من الدواء!

خرجت من المستشفى والإحباط يحاول أن يجهز عليَّ، ينتظر تلك اللحظة منذ زمن! لقد أحضرت عيِّنة فقط من الدواء وكنت أنتظر أن يجيبني أحدهم بالموافقة أو الرفض حتى أستطيع إحضار بقية الدواء، هو نادر

جدًّا والتأخير يعني أنني ربما أعود إلى الصيدلي فأجد الدواء قد نفد!

استجبت لصديقي الصيدلي حين نصحني بشراء ثلاث وحدات من الدواء المطلوب، وذلك أقل الضررين:

- إن أقر الطبيب الدواء أحضرناه، وإن لم يقره فلن نخسر كثيرًا.

أخرجت ما في جيبي من نقود، وكانت تكفي بالكاد بضعة أيام. بعد شراء الدواء لن يتبقى شيء، ولا أعرف ماذا أفعل بعد ذلك! كان كل ما يشغلني في تلك اللحظة هو توفير الدواء، أي شيء بعد ذلك يمكن تدبره!

اليوم الثامن والعشرون

حضرت إلى المستشفى، أخرجت الورقة فئة الخمسة جنيهات ثمن تذكرة الزيارة، لم ألتفت إلى المصعد لأنه معطل كالعادة، أسرعت في صعود الأدوار الخمسة، لم أقف كثيرًا أمام النافذة الزجاجية، وتوجهت إلى غرفة الطبيبة، الدقات المعتادة نفسها، لم أتعجب حين وجدت طبيبة أخرى، فمن عجائب مستشفى أبو الريش أنك في كل يوم تشاهد طبيبًا مختلفًا، وفي كل مرَّة تشرح المطلوب للطبيب!

- مساء الخير يا دكتورة.

بدأت في شرح الحالة. أصبح مقررًا يوميًّا تعودت عليه.

- أنا ما اعرفش حاجة عن حكاية الدواء دي! استنى لما الاستشاري ييجي ونبقى نسأله.

كأن صاعقة من السماء هبطت على رأسي! ٢٤ ساعة وأنا أبحث عن الدواء، يوم واحد ربما قلب الموازين في حالة يوسف، تجمعات المياه التي تضغط على خلايا المخ

محتمل أن تسبب إعاقة ما! أنا أنتظر اليوم الذي يخبرني فيه الطبيب أن ابني سيصبح معاقًا! بكتيريا تعيش في رأس طفل في يومه الثامن والعشرين في الدنيا، وأقابل ثلاثة أطباء، في كل مرَّة أحكي القصة نفسها لأنتظر رد أحدهم في دواء غير موجود في مصر من الأساس وتمكنت من إيجاده بمعجزة!

اضطررت للانتظار. حل المساء وبدأ الخوف منه يراودني. أنتظر في الدور الخامس حضور الطبيب المختص. الإجابة تأتي أن الدواء موافَق عليه. أمسك الهاتف سريعًا لأطلبه من الصيدلي، لكنني أسمع الرد الذي كنت أخشاه. لم أخبر الطبيب حتى الآن أن الدواء نفد من الصيدلية لأنه لم يقدر الوقت أو لأنني لم أجد طبيبًا دائمًا أتفاهم معه في الحالة!

في تلك اللحظة التي ضاقت فيها الدنيا عليَّ شاهدت الرجل ذا الانحناءة الخفيفة على ظهره يقف أمام الطبيب المسؤول والابتسامة نفسها على وجهه، اقتربت منه لأسأله عن حال طفلته، لكن قابلتني كلمات الطبيب للرجل:

ـ الحكاية مسألة وقت، بنتك حالتها صعبة جدًّا ومفيش أمل!

صدمتني كلمات الطبيب، لكن الأب لا زال يقف والابتسامة على وجهه:

ـ الحمد لله يا دكتور، إحنا بنعمل اللي علينا وكل واحد بياخد نصيبه!

أدركت الآن لماذا ابتسم حين أخبرته بحال طفلي، هو يعرف من اليوم الأول أن طفلته لن تعيش، ينفق كل تلك النقود على جسد شبه ميت، يبتسم من دون تكلف وهو يعرف النهاية. أدركت الآن سر الانحناءة الخفيفة، بعد أن أخبرني أنه قد مات له طفلان قبل تلك الفتاة، وهو راضٍ بقدر الله، وفي الوقت نفسه يقول إنه لا يجب أن يقصر، يجب أن يظل حتى النهاية بجوار طفلته، التي يعرف أنها سترحل في أي لحظة. تعجبت من ابتسامتي المصطنعة، وقررت في تلك اللحظة أن تكون حقيقية، فأنت لا تُسيِّر العالم على هواك، لكنك تملك فقط أن تُسيِّر عالمك الخاص كما تريد. تذكرت أنني أحمل في يدي ثلاث وحدات من الدواء المطلوب تكفي لعلاج يوسف ستة أيام متتالية، وقد تكفي للقضاء على الميكروب. تذكرت أن حالته مستقرة، وأننا تجاوزنا مرحلة الخطر. تذكرت أن يوسف في القريب العاجل سوف يترك الدور الخامس ويعود إلى المنزل، حتى لو صحبته إعاقة، يكفي أن بسمته ستظل معه وأنا أخبره بعد أعوام كيف أنني أحبه!

اليوم التاسع والعشرون

سيدة في العقد الخامس من العمر تجلس وراء مكتب متهالك، منهمكة في دفاتر تسطر فيها كلمات ربما كانت تسجيل ميلاد آخرين. في مكتب الوحدة الصحية بقرية «كفر غطاطي» مركز كرداسة، أقف منتظرًا استلام شهادة ميلاده.

ـ مساء الخير، باسأل عن شهادة ميلاد يوسف سامح.

ـ مساء النور، ثواني أشوفهالك.

دارت حول نفسها قليلًا ثم قامت من مكانها وتوجهت إلى دولاب في المواجهة وأخذت تقلب فيه. أخرجت ورقة وعادت إلى مكتبها. جلست.

ـ يوسف سامح، ربنا يخلي، اتفضل.

خرجت من المكتب وأنا أحمل في يدي ورقة تقول إن هناك ضيفًا جديدًا على الأسرة.

اليوم الثلاثون

اليوم وجدت أول دكتورة تابعت يوسف منذ أن دخل إلى المستشفى، وأظن أنها الوحيدة من بينهم التي يجب أن نطلق عليها صفة الطبيبة، لأنها تعرف ما تفعل. فقد استغربت من رد فعل زملائها السابقين، وطلبت ١٠ أمبولات من المضاد الحيوي، لأن العلاج سيستمر عشرين يومًا. حاليًّا أجلس في مقهى «زهرة البستان» أحدث نفسي ولا أعرف ماذا أفعل!

أوقفت الكتابة عن يوسف. أصبحت الحكاية موجعة! هي بالفعل كذلك منذ اللحظة الأولى، يكفي ما شاركتموني فيه حتى الآن! سوف أحكي لكم فقط آخر موقف حدث أمس في الدور الخامس.

وأنا أمارس العادات اليومية في الدور الخامس، من متابعة الأطباء والممرضات، ومشاهدة يوسف داخل الغرفة الزجاجية، وجدت فجأة أبًا يصرخ لفقد ابنته:

ـ أنا مش شحات، عاملوني كبني آدم!

بيد أن الأطباء لا يريدون معاملتنا كآدميين! حتى في أحلك ظرف يمر به الإنسان يعاملونه كحيوان! الإنسان في مصر يصرخ حتى يعاملوه كآدمي فقط لا غير! أملك الكثير من هذه القصص، لكن أجد أنني أزيد أصحابي ألمًا! ولكن ذلك لا يمنع أنني سأستمر في الكتابة، بل أنتوي جمع هذه الحكايات في كتاب بعد أن أطمئن على يوسف ـ كتاب أحكي فيه صرخة فقير يطالب بكرامة لا يسمع عنها إلا في الحواديت والأساطير!

هتعيش غصب عنك!

اليوم الرابع والثلاثون

لا جديد.

اليوم السابع والثلاثون

غدًا، هناك خبر جيد لو تأكد، يخص يوسف.

اليوم الثامن والثلاثون

اليوم شاهدت العمال في المستشفى يضعون رخامًا في الأرضيات في أوقات ذروة عمل المستشفى، في المسافة بين رعاية القلب ورعاية المخ والأعصاب. والعمال أغلقوا الباب في وجه الناس الذين جاءوا لزيارة أطفالهم المرضى حتى يتمكنوا من العمل. ذلك بالإضافة إلى أن الخبر الجيد لم يتأكد بعد. تركيب الرخام كان أهم من وجهة نظر المستشفى!

اليوم الحادي والأربعون

مكالمة هاتفية لم تتجاوز عشر ثوانٍ:

ـ حضرتك والد يوسف؟

ـ أيوه.

ـ تعال خده.

ـ مش فاهم!

ـ اتكتب له خروج.

١٢ ساعة قضاها يوسف في المنزل قبل أن تغشاه تلك الرجفة. صمتٌ ألمَّ بي وبوالدته، ورجفة مماثلة حطت على قلبينا. ٣٠ ثانية قبل أن يعود لطبيعته، لكنها كانت ثواني ثقيلة الحركة، مرت ببطء، استعدت معها ذكريات الأربعين يومًا التي مضت وأنا أهرول بين أروقة المستشفيات ومتابعة حالة يوسف.

كأننا خشينا أن ننطقها، لكن بعد خمس ساعات تكررت الرجفة، فخرجت الكلمات في المرَّة الثانية:

- نروح المستشفى؟

- طب استنى على بالليل يمكن تكون حاجة ليها علاقة بالعملية!

كنا نود أن نجد أي مخرج لتفادي العودة إلى داخل سور الدور الخامس. الذهاب إلى المستشفى قرار أصبح يحتاج إلى وقفة. دراسة كل الاحتمالات المتاحة قبل أن نقرر خوض التجربة. يحصل ذلك في مصر فقط!

لكننا لا نملك ذلك إلا لأنفسنا! ومع الرجفة الثالثة وتخشب الأعضاء، أسقطنا كل الاحتمالات، وكان الظن أن المسألة عادت إلى نقطة الصفر.

ملحوظة:

١ - الذي لا يعلمه البعض أنه بسبب الضغط على العيادات الخارجية بمستشفيات أبو الريش، تم تقسيم الأيام بينها: عيادة الصدر يومَي كذا، عيادة الباطنة يومَي كذا، ولو جاء أحدهم في غير تلك الأيام عليه أن يخوض رحلة حتى يحوَّل إلى عيادة الطوارئ، التي تحمل كل التخصصات، لكنها للحالات الخاصة فقط.. وعيادة المخ والأعصاب يومَي الأحد والثلاثاء.

٢ - يجب أن يحفظ الأب أو الأم تلك الأيام جيدًا، أيهما تحمَّل مسؤولية الذهاب.

ذهبنا في البداية إلى العيادة بمستشفى الاستقبال، ليقرر الطبيب إن كانت الحالة بسيطة لا تستلزم شيئًا، أو كانت تحتاج إلى عيادة الطوارئ. بمجرد رؤية يوسف تجمع كل من في العيادة. كنَّ جميعًا فتيات، ولأنه مستشفى تعليمي، فقد تحول الكشف الطبي على يوسف إلى محاضرة في استسقاء الدماغ:

- كله يبص في بق يوسف. شايفين إيه؟ كل دكتورة تقول شايفة إيه.

الجميع توجهن بشغف إلى نقطة تسهِّل عملية الرؤية، لكن لا أعلم ما علاقة فم يوسف باستسقاء الدماغ أو المياه الزائدة في المخ! طلبت الطبيبة الأشعة والتحاليل التي أجراها يوسف قبل خروجه. أخبرتها أن يوسف خرج قبل إجراء أي أشعة. تعابير وجهها أوحت أنها تستعد لإخراج صوت مميز من الخيشوم. قالت:

- إزاي ما عملتوش أشعة؟!

همهمتُ بصوت غير مسموع: «وأنا مال أمي؟! أنا أبو الولد مش الدكتور بتاعه!».

أمسكت الطبيبة ورقة وسطرت فيها الأشعة والتحاليل المطلوبة.

ملحوظة:

الأشعة التي أجريناها في مستشفى أبو الريش وكل ما يتعلق بالكشف كان مجانيًا. للعلم أن تكاليف الأشعة والكشف نفسها في عيادة خاصة ألف جنيه تقريبًا.

مر وقت طويل ونحن ننتظر النتيجة أمام غرفة الأشعة. بعد فترة طرقتُ الباب، فخرج أحدهم وعلامات التأهب تعلو وجهه، لكنني غلبته ببسمة خفيفة وكلمة «آسف»، من دون أن أكون قد أخطأت أصلًا:

- حضرتك إحنا عملنا أشعة هنا من ساعة إلا ربع ولسه النتيجة ما طلعتش!

(نتيجة الأشعة تظهر في خلال خمس دقائق لا أكثر).

- باسم مين؟

- يوسف سامح.

- انزل الدور الأرضي للدكتور اللي كشف عليك وهاته يمضي على الأشعة ويستلمها!

احتاجت المسألة كل ذلك الوقت كي يخبرني أن

الطبيب يجب أن يوقع على النتيجة. ساعة كاملة وأنا أنتظر ما لا يحتاج إلا إلى خمس دقائق، ذلك أن الموظف تكاسل عن إخباري بالمطلوب، أو أنه خشي أن يحرك شفتيه فيبذل مجهودًا ربما أعياه لاحقًا!

هبطت درجات السلم وذهبت لإحضار الطبيبة، ومع آخر درجة سمعت صوت عراك:

- هاطلع ... أمك!

- والنعمة أنا بياع على باب الله!

- بياع مين يا ابن الـ.....ة!

شاب في العقد الثالث من عمره، أسمر البشرة، ملابسه تمزقت تمامًا، والدماء تغطي وجهه، يقبض على قفاه رجل في العقد الرابع.

الشاب يبكي بطريقة هستيرية، ويحاول أن يُحَدث الرجل الذي يقبض على قفاه، من دون جدوى:

- والله أنا سرِّيح باسترزق من الدكاترة هنا وبابيع مستلزمات طبية!

- سرِّيح مين يا كـ...ـك!

قبضة يد تهوي على الشاب وصوت بكائه يرتفع. أمن المستشفى تجمع حوله وحالوا بينه وبين المعتدي عليه.

ـ بتضربه ليه يا أستاذ؟

ـ كان بيدأَّر ابن المـ.....ة!

(«يدأَّر» مصطلح شعبي يعني التحرش، وهو أن يستغل أحدهم زحامًا ما ويندس بين الفتيات ويبدأ في التحرش).

لا أعلم إن كان الشاب تحرش بالفعل أم لا، لكن ما حدث يخبر أن باب رزقه داخل ذلك المكان قد انقطع.

مررت بصعوبة وسط الزحام. وصلت إلى العيادة، وأخبرت الطبيبة بالمسألة، فأشارت لزميلتها التي تبعتني على الفور. عدت بنتيجة الأشعة إلى عيادة الطوارئ فتجمعت الفتيات وبدأن النظر بشغف إلى الأشعة ـ أصبح يوسف مَعلمًا منذ أسابيعه الأولى!

قلق ساور الطبيبة، وتحدثت بالإنجليزية مع أخريات. حل صمت بالمكان وتملكتني قبضة:

ـ خير يا دكتورة فيه إيه؟

ـ مش خير خالص، تجمعات المياه لسه موجودة. كان لازم تركب صمام في المخ!

ـ لكن الدكتور رجع قال إن يوسف مش محتاج صمام!

ـ بس الأشعة أظهرت إن فيه مياه ظاهرة على المخ. شوف، أحسن تاخد الأشعة وتطلع للجراح اللي أجرى العملية.

عدت مرَّة أخرى إلى الدور الخامس، وبمجرد أن رأيت الدكتور أمامي، هدأ روعي. مهما كان الذي سيحدث بعد ذلك، فأنا مطمئن أن الرؤية اتضحت.

ـ تشنجات يا دكتور، حصلت له ٣ مرات إمبارح!

نظر الطبيب إلى الأشعة فلم يجد شيئًا. ترك الدور الخامس وهبط معي إلى الدور الأول حيث عيادة الطوارئ، وفحص يوسف، فلم يجد شيئًا. قال إن ما حدث مسألة طبيعية بعد جراحة في المخ.

ـ أنا ملاحظ إنك مزوِّدها قوي وبتقلق بطريقة كبيرة. بعد كده أي حاجة تحصل في أي وقت بالليل أو بالنهار أنا موجود في المستشفى، إنت لما بتحتاجني بتلاقيني. هاكتب له دواء شرب عشان الرجفة دي، ومش كل حاجة تحصل تقول عليها تشنجات! الولد لو جاله شوية برد هيرتعش!

لحم متكوم يتدافع بحثًا عن ورقة. أطفال فوق الأكتاف أو الرؤوس. كلما تهاوى الجسد أو قدم اليأس أرسل الأطفال نكزة تقول: «إننا لا زلنا هنا». نافذة في الأمام يجلس خلفها رجلان. أوراق تتبادلها أصابعهما، تذهب إليها عيون أكوام اللحم المتدافعة. إنها تأشيرة الدخول إلى العيادة الخارجية.

ـ هناخد ٢٠٠ حالة بس، أكتر من كده يروح وييجي يوم الأحد اللي جاي الساعة ٦ الصبح.

عيادة العظام يومًا واحدًا فقط في الأسبوع. لا يهم أيهم حالته خطرة. من لديه والد شديد البأس، له قدرة على التقدم داخل اللحم المتكوم، هو الأفضل حالًا.

صرخة أتتني وأنا على رأس الشارع في الطريق إلى المستشفى:

ـ حراااااااااام! والنعمة أنا! والنعمة أنا!

رجل يصرخ ودموعه تسبقه، يلوح بيديه كالمجنون. وددت لو أقبلت إليه مادًّا يد المساعدة، لكنه كان في مقدمة اللحم

المتدافع، بشر تخلوا عن آدميتهم وتحولوا إلى أكوام من اللحم، تدفع بعضها بعضًا من دون أدنى انتباه، جميعهم يريدون الوصول إلى تأشيرة الدخول.

ـ لا إله إلا الله، الراجل من المنصورة وبايت هنا من إمبارح ببنته وواقف في الطابور وحد خد ورقته، ندهوا الاسم واحد رد وخدها مكانه والراجل هيموت ويقولهم إن هو مش هو!

يبدو أن أحدهم استعمل «الفهلوة» ليأخذ ورقة آخر، وتركه يصرخ كالنساء محاولًا إثبات أنه هو!

نساء يقفن في الجوار في انتظار أن يُحضر الزوج الورقة، يتبادلن أطراف الحديث عن الرجل الباكي.

ـ لو سمحت أنا جاي لعيادة المخ والأعصاب، ابني عمل جراحة هنا من أسابيع ومعايا كارت متابعة.

ـ انتظر في الطابور يا أستاذ، لازم تاخد ورقة، محدش بيعدي من غير ورقة.

ـ بس أنا معايا الكارت الأحمر، متابعة!

صمت.

ـ متابعة.

صمت.

دفعة من أحدهم كادت أن تسقطني لولا أني تمالكت نفسي. امرأة تقف بجواري تحمل طفلتها المريضة:

- والنبي يا ابني هاتلي معاك ورقة!

- على عيني يا أمي، بس همَّ هياخدوا ٢٠٠ حالة بس، اكتبي اسمك عند الأستاذ وهمَّ هينادوا بالدور لحد ما الورق يخلص.

ذهلت المرأة، ودارت دورة كاملة حول نفسها كأنها تنتظر المدد:

- ياااااااااااااااااا رب.

أرسلت ابتسامة لزوجتي الواقفة على جانب الطريق، بعيدًا عن أكوام اللحم المتدافعة. يوسف يتمدد على صدرها، لا يثير قلقًا، أو بالأحرى لا يثير أي شيء، مجرد جسد متمدد.

حمية الأب دبت، فقررت ترك آدميتي والتحول إلى كومة لحم. تدافعت، حاولت، لكنني فشلت. جسدي الواهن لم يسعفني. أكوام اللحم المتدافعة أصبحت لا تسمح بالدخول. لقد جئت في الثامنة والنصف صباحًا، وذلك موعد متأخر جدًّا، إذ هناك من بات على الرصيف أمام النافذة - أناس جاؤوا من بعيد، ويعرفون أنه لا سبيل للرجوع. الآن عرفت أنه حتى عندما نتحول إلى أكوام

لحم نصير درجات، هناك القوي والأقوى، هناك المثابر، هناك من يأتي متأخرًا مثلي في الثامنة والنصف صباحًا!

- ياااااااااااااااااا رب.

لا زالت المرأة تنتظر المدد. اقتربت منها محاولًا تخفيف وجع ألمَّ بها. ربما أردت السلوان من رؤية من هم أصعب حالًا:

- يا أمي تعالي الأحد اللي جاي، همَّ خلاص كتبوا ٢٠٠ اسم وبينادوا عليهم دلوقتِ.

- يا ابني ما ينفعش! ده تالت أسبوع آجي وما الحقش أكتب اسمي!

- يا أمي تعالي بدري شوية!

- بدري إزاي؟ أنا من طنطا وبنتي بتموت!

- جوزك فين يا أمي؟

- في الشغل، على باب الله! وأنا اللي باجري بالعيال!

نسيت أن أذكر في البداية أن أكوام اللحم اثنان: كوم مذكر، وآخر مؤنث. لكن بمرور الوقت أصبح اللحم واحدًا، والتدافع لصالح الكوم المذكر، والمؤنث بعضه لجأ إلى البكاء والبعض الآخر تخلص من بقية حياء شرقي وبدأ في اختراق صفوف الرجال.

ـ يااااااااااااااااا رب.

ـ إنت عيادة مخ وأعصاب؟

ـ أيوه يا والدي.

ـ يا ابني انت ملكش تقف في الطابور، الوقفة دي لعيادة العظام بس، المخ والأعصاب بياخد الورقة على طول. إدي أي حد في أول الطابور اتنين جنيه وقوله ورقة مخ وأعصاب.

الوصول لأحدهم في مقدمة الطابور في حد ذاته مسألة معقدة، لكنها لم تكن بالتعقيد نفسه على ذلك الشاب العشريني. رفع هامته إلى الأمام وكأنه يقيس المسافة، ثم تمتم ودفع نفسه إلى الأمام وسط أكوام اللحم ـ قوة مع سرعة حركة ـ وأصبح في المقدمة. أعجبتني مثابرته. سألني عندما جاء فأخبرته أن العدد اكتمل، لكنه لم ييأس. بعد قليل خرج بورقة مع أنه حضر متأخرًا. إنه منطق الأقوى في التدافع.

لم نملك أنا وزوجتي سوى الانتظار. اطمأننت عندما علمت أن عيادة المخ والأعصاب يحضرها قليلون، وأن الورق يكفي الجميع. وقفت أتأمل تدافع أكوام اللحم، بكاء المرأة التي تأتي من طنطا منذ ثلاثة أسابيع ولا تجد ورقة، ذلك الرجل من المنصورة الذي اختفى بعد صرخة وبضع دمعات، ربما ملك ورقة، وربما رحل متلحفًا بالمدد من السماء.

ـ يااااااااااااااااا رب.

صرخة أخرى، لكنها جاءت من جانب الرصيف الآخر، بعيدًا عن أكوام اللحم، حيث لا يوجد تدافع:

ـ شوف ابن الحرام، قطع الشنطة بالموس وسرق البوك!

ـ حراااااااام، فلوسي كلها، البنت هتموت مني!

راودني سؤال: لماذا لا يكون هناك يوم آخر لعيادة العظام طالما أنها عيادات تعليمية ومعظم الأطباء طلبة لا يحصلون على أجر؟!

انتهى مشهد أكوام اللحم المتدافعة. حصلت على ورقة. على الباب طلب موظف الحراسة أن يدخل شخص واحد مع الطفل:

ـ معلش يا بيه، التعليمات كده، العدد كبير ولازم شخص واحد مع الحالة.

آثرت الانتظار. أخذت أتأمل في الناس من حولي: أحدهم عاد إلى آدميته بعد أن حصل على الورقة، وثانٍ يبكي لمهانة، وثالث يضحك لأن طفله تمكن من الدخول، ورابع لا يكترث، يقف على جانب الرصيف يدخن سيجارة وهو يتمتم محدثًا نفسه، ربما يتساءل هو الآخر: لماذا لا يكون هناك يوم آخر لعيادة العظام؟!

تأملت مشهد النافذة ولا أحد يقف أمامها. تقدمت إليها وارتكزت على الحائط. لا زالت المرأة من طنطا تبكي.

ـ يا ابني تذكرة، البنت هتموت!

ـ خلاص يا أمي العدد اكتمل، تعالي الأحد اللي جاي الساعة ٦ الصبح!

جاء شاب في الساعة العاشرة والنصف، يحمل طفله ومن خلفه زوجته. ندَّت عني ابتسامة ساخرة.

ـ عاوز تذكرة عظام لو سمحت.

ـ خلاص العدد اكتمل.

ـ أرجوك أنا جاي من الفيوم!

ـ يوم الأحد اللي جاي الساعة ٦ الصبح!

ـ الواد تعبان شوف لي أي ورقة!

صمت.

ـ لو سمحت!

صمت.

دار دورة أخرى حول زوجته، ونظر إلى السماء ربما ينتظر المدد:

ـ يااااااااااااااااااا رب.

ملحوظة:

بعد يومين، مات يوسف في الرابعة فجرًا، يوم ١٠/ ٦/ ٢٠١٤، بعد أن أتم الأربعة والخمسين يومًا.

ورقة التصريح بالدفن احتاجت أقل من ثلاث دقائق لإنهائها، حتى إن الموظفة قالت: «ادفنوه عادي، في الموت مش لازم ورقة»!

* * *

دق الصمت باب المنزل، وتسلل من دون أن ندري إلى باب الحياة، وتبدل العالم من حولي، فأصبحت غير الذي كان. للحظة تمنيت لو كان حلمًا، لو أصبح حلمًا، لو طالتني نكزة خفيفة من زوجتي مثل تلك التي ترسلها كل صباح وهي تناديني لتوقظني من نومي، لأجد أن شيئًا لم يكن! الفجر يلوح من النافذة، وأسفلها يتمدد جثمان يوسف! رأيت الموت كثيرًا، وحملت موتى أكثر، لكنها المرَّة الأولى التي أشعر فيها أن الموت يشدني إليه، يشعرني بكل تفاصيله! شاهدت الموت، نعم، لكنها المرَّة الأولى التي يكون الميت فيها ولدي!

حاولت أن أحضر الغُسل فلم أقدر، دموع زوجتي تذيب ما

تبقَّى من قوتي، جسدي يكاد يتهاوى. أقف خارج الغرفة، أنتظر انتهاء المُغسِّل من تكفين ولدي. بعد الانتهاء يفتح الباب، يخرج ويوسف على يد أخي الأكبر. زوجتي تصرخ فأهتز. تحاول لمسه للمرَّة الأخيرة، لكنها تعجز عن لملمة حزنها أمام جثمانه. أخرج مسرعًا وأجلس في السيارة التي ستنقلنا من منزلنا بمحافظة الجيزة إلى موطن عائلتي في محافظة بني سويف. يلحقني أخي بصحبة ابن عمي وهو يحمل يوسف. يقربه مني، ألمسه، فأهتز مرَّة أخرى وأعيده سريعًا. لا أقدر على حمله. كلما لمسته أدركت أنني كنت سببًا في مرضه، في وفاته! أنا من فتحت له باب الدنيا من دون أن أتأكد من قدرتي على غلق باب الموت أمامه في أيامه الأولى على الأرض!

في الطريق إلى المقابر تخيلت أني سأتصنع الصبر، لكنني وجدته بالفعل، وارتسمت بسمة خفيفة على شفتيَّ. أدركت الآن أن الموت أنقذ يوسف من ميتات حياته. أمام القبر وقف الجميع يواسونني، لكن أحدًا منهم لم يجد تفسيرًا لابتسامتي، لوجهي الذي تهلل وهم يضعون يوسف في القبر. تقبلت العزاء على قبره في الجبل على أطراف قريتي. هبطنا بعد الانتهاء. حاولت أن أتسلل إلى نفسي فوجدت بابها قد أغلق، ورأيت نفسًا أخرى تراودني!

الرحلة إلى الجنوب

في عام ١٩٩٥، دق باب منزلنا على صوت زميل والدي، قال لأخي الأكبر إن والدي بحاجة إلى بعض الأغراض الخاصة به، وإنه لن يتمكن من أن يكون معنا الليلة. ثم اصطحب أخي حاملًا الأغراض الخاصة بأبي. وبعد أيام، عاد أخي بصحبة أبي يتكئ عليه. كنت طفلًا في العاشرة من عمري، لا أستوعب المسألة، عرفت بعد ذلك أن أبي أصابه التعب أثناء العمل ودخل العناية المركزة لأيام. لكن سؤالًا ظل يراودني حتى بعد وفاته عام ٢٠٠٩ عن تسعة وأربعين عامًا: كيف تصل الحال بشاب في الخامسة والثلاثين من عمره لأن يحتاج إلى عناية مركزة في أحد المستشفيات؟

عانى والدي من ارتفاع في ضغط الدم. كنت أراه في أول كل شهر يدخل المنزل محملًا بحقيبة مليئة بالأدوية، كانت تزيد في كل عام، زادت الأمراض ليضاف إليها تليف الكبد، ثم فيروس سي، ثم السكر. كان وهو في

الثالثة والأربعين من عمره يفكر في المعاش المبكر. كنت أنظر لحاله التي لا تتحسن وأندهش، مع كل هذه الأدوية، كيف لا يكتفي بمرض واحد بدلًا من هذه الأمراض التي تزيد بشكل سنوي؟!

صحبت والدي في عام ٢٠٠٧ إلى المستشفى التابع لوظيفته في هيئة النقل العام. جلسنا لأربع ساعات في انتظار الطبيب. جميع المرضى في غرفة الانتظار تظهر عليهم الشيخوخة، مع أن بياناتهم تؤكد أن أكبرهم في العقد الخامس من عمره. بعد معاناة حضر الطبيب. هرج ومرج في المكان، وممرض يقف على باب عيادة الطبيب يصرخ في الجميع. جاء دور والدي، إلا أنه وبعد ساعات من الانتظار لم يجلس سوى دقائق بالداخل، ليخرج محملًا بروشتة مُلئت أدوية جديدة. في ذلك الوقت لم نكن نملك المال الكافي لزيارة طبيب خاص، التأمين الصحي كان كفيلًا بعلاج أبي، أو هكذا ظننت، خصوصًا بعد وفاته، حين أدركت أن غالبية الأدوية كانت مجرد مسكنات للألم، ولم تضم يومًا علاجًا. المرض يتوغل في الجسد، وأبي ونحن لا ندرك أنه، طوال هذه السنوات، كان يحمل في حقيبته مسكنات للمرض! كان التأمين الصحي يسوقه للموت من دون أن ندري!

بعد وفاته، أجرينا جميعًا كشفًا طبيًّا، لمعرفة ما إذا انتقل الفيروس الذي أصاب والدي إلى أحدنا. وكانت النتيجة إصابة والدتي بالمرض. قرر أخي الأكبر ألا تمر أمي بتجربة أبي نفسها. من اللحظة الأولى في المستشفى الحكومي، سأل على العيادة الخاصة لطبيب المستشفى الحكومي، ليذهبا إليها في المساء. تعلمنا بعد رحلة العلاج مع أبي أن دفع ثمن تذكرة في العيادة الخاصة للطبيب المعالج، التي يذهب إليها بعد الانتهاء من عمله بالمستشفى الحكومي، يكفل للمريض قدرًا من الاهتمام أكبر مما يحظى به المرضى في المستشفى الحكومي.

وبعد عامين بالضبط شفيت أمي من مرض لازم أبي لسنوات وتسبب في وفاته. أدركنا متأخرًا جدًّا أن مائة جنيه تُدفع في العيادة الخاصة للطبيب المعالج في المستشفى الحكومي صباحًا كفيلة بإزاحة كثير من العوائق في رحلة العلاج، أو في أحسن الظروف كفيلة لأن يعامل المريض بآدمية. فمن بين مئات المرضى الذين تتكدس بهم أروقة المستشفى الحكومي، يهتم الطبيب أكثر ببضعة مرضى يتابع حالتهم في عيادته الخاصة!

الفترة التي تبعت وفاة يوسف أعادت إلى ذاكرتي كل شيء عن العلاج والمستشفيات الحكومية ومرض والدي

ووفاته. تذكرت ذلك اليوم الذي عاد فيه أبي إلى المنزل ويده مصابة، وآثار الدم على ملابسه. قال إنه وصل إلى مرحلة لم يتمكن فيها من السيطرة على نفسه بعد انتظار ساعات كالمعتاد في عيادة الطبيب بالمستشفى الحكومي، في حين لم ينتبه له أحد. هنا خرجت تصرفاته عن السيطرة وبدأ في تكسير كل شيء تطاله يده، خصوصًا بعد أن تعامل معه الممرض بشكل غير آدمي. لم أعطِ كل ذلك اهتمامًا وقتها، بل شغلتني مسألة واحدة فقط، بعد كل هذه السنوات من المهانة في العلاج داخل مستشفيات حكومية: لماذا الآن بالذات قرر والدي أن يثور على وضعه ويدمر كل ما تطاله يداه داخل العيادة؟

الذكريات التي أخذت تراودني دفعتني لسرد كل ذلك في كتاب «رحلة يوسف» لكي يقرأه الناس. التجربة التي رأيتها مع أبي وأنا شاب، أعاني مثلها وأنا أب لطفل يعجز حتى عن البكاء للتعبير عن ألم يوجعه. رأيت أبي يموت لأننا لم نكن نملك مالًا أو ربما وعيًا طبيًّا يدفعنا للذهاب للمكان الأفضل، ورأيت ولدي أيضًا يموت بالطريقة نفسها. رحيلهما كان دافعًا لأن أكتب. لكن جميعنا رحل له أحباب، فما الذي سيُميز «رحلة يوسف»؟ مات والدي وأحد لم ينتبه، مات يوسف وأحد لم ينتبه، ومات آخرون

وأحد لم ينتبه، فلماذا علينا الآن أن نسطر الموت في كتاب، نحكي فيه أوجاعنا؟ هذه جميعها تساؤلات سبقت مرحلة الكتابة، نعم، أحتاج إلى عالم أكبر يعطي «رحلة يوسف» قدرًا من الأهمية لدى القارئ.

* * *

بضعة شهور انقضت وأنا أبحث عن حكاية، تجعل من قصة يوسف مسألة تهم القارئ، حكاية تعكس المسألة من قضية أب فقد ولده، إلى قضية كل الآباء. فكرت، حتى كانت تلك الليلة التي تذكرت فيها أُسرًا كثيرة كانت تأتي من المحافظات المختلفة لمعالجة أطفالها في مستشفى أبو الريش: تلك الأسرة من محافظة سوهاج التي لم تملك ثمن غرفة فندق تقضي فيها فترة علاج طفلها في المستشفى فلم تجد سوى الرصيف ملاذًا. الأم التي كانت تصرخ لأنها حضرت متأخرة من طنطا ولم تلحق تذكرة العلاج، وأخبرتني أن الموظف قال لها إن التذاكر نفدت، فردَّت أنه الأسبوع الثالث الذي تحضر فيه بعد انتهاء صرف التذاكر. ذلك الأب من المنصورة الذي تلحف السماء على رصيف المستشفى أمام نافذة قطع التذاكر ليكون الأول، لكن في الصباح ومع الزحام، سرق أحدهم تذكرة دخوله مع طفلته المريضة حين ادعى السارق كذبًا أنه صاحب الاسم

المنادى عليه، صرخته التي صاحبتها دمعات لم تناسب جسده الضخم. ذلك الأب من الفيوم الذي حضر في العاشرة صباحًا بطفله ليخبره موظف قطع التذاكر أن عليه التواجد أمام الشباك في السادسة صباحًا ليحجز مكانًا، وأن تأخره سيؤخر العلاج للأسبوع القادم.

تلك الذكريات قادتني إلى فكرة كتاب «رحلة يوسف»: لماذا لا أذهب إليهم في مواطنهم، أدوِّن صرخات الألم، ربما أجبر الورق الآخرين على السماع؟ لماذا لا أنتحل صفة أب مرض طفله فخرج من بيته بحثًا عمن يداويه؟ لماذا لا يكون ذلك الطفل المتخيل هو يوسف؟ لماذا لا أعيده للحياة ولو لأيام، ربما عرفت سبب رحيله؟

* * *

وسيلة انتقالي من قرية «قصر الجبالي» إلى مركز إبشواي كانت سيارة ربع نقل، واستخدمت الوسيلة نفسها في الانتقال إلى مدينة الفيوم، ومن مدينة الفيوم إلى قريتي بمحافظة بني سويف. كنت الراكب الوحيد الذي يفقد اتزانه ويترنح مع السيارة في الطريق. الجميع اعتاد على عربة النقل كوسيلة انتقال، أما أنا فأراها في القاهرة تنقل جمادًا أو حيوانات. هي ليست مخصصة لنقل بشر، لكن في قرى محافظات الصعيد كل شيء جائز.

على أعتاب قرية عائلتي بمركز ناصر في محافظة بني سويف أجريت مكالمة هاتفية مع خالي، أخبرته أنني أريد أن أزور قبر يوسف.

* * *

ربما لم أكن لأعيش حتى اللحظة لو لم ينتقل أبي للإقامة في القاهرة. مات أخي الذي يكبرني بعام لأنه لم يجد رعاية طبية مناسبة في القرية!

في منزل مبني من الطين وسقفه من جريد النخل كان مولد أخي أحمد عام ١٩٨٤، لكنه مات سريعًا. تقول أمي إنها شعرت بمرض أخي لكنها لم تملك من أمرها شيئًا، وكان والدي يقضي مدة خدمته في الجيش. في هذا المكان من جنوب مصر يكفي أن تعمل الأم كمادات باردة لو ارتفعت حرارة الطفل، أو تعطيه مشروبًا دافئًا إن كانت الشكوى من البطن. في مثل هذا المكان لا يعرفون الطبيب، ولو عرفوه فلن يجدوا المال الكافي ثمن تذكرة الكشف أو الدواء، وإن وجدوا المال فلن يجدوا الطبيب، وحتى إن وجدوا كل ذلك فيجب أن يمروا أولًا على شيخ القرية ليعالج مريضهم بالقرآن، فمن المؤكد أن هذا الوجع ما هو إلا مس من الشيطان.

تحكي أمي أنها لم تُطِق صبرًا على مرض طفلها، حملته

من دون علم الأهل وخرجت سرًّا من القرية إلى المدينة، هناك من المؤكد يوجد أطباء. تقول إن الطبيب نهرها فور أن رأى أخي في حالته تلك، إذ ظن أنها أهملته. عادت أمي إلى البيت تحمل الدواء على أمل أن يشفى أخي أحمد، لكنه مات بعد أيام قليلة، مات ولم نعرف حتى الآن ما الذي أصابه!

* * *

راودتني هذه الذكريات وأنا أتشبث في حديد السيارة الربع نقل المكشوفة، وسيلة النقل المتاحة في قرى صعيد مصر. أنظر إلى أرضية السيارة لأجد بقايا روث بهائم، وربما بقايا خشب أو مواد بناء. أحاول أن أجد تفسيرًا لكون سيارات نقل البهائم والبضائع هي ذاتها سيارات نقل الإنسان في جنوب مصر. يجلس الجميع في الصندوق الخلفي للسيارة من دون بذل العناء نفسه الذي أغرق فيه، التعود مفيد في مثل تلك الحالات. من السهل على أهل القرى التعرف إلى الغرباء من طريقتهم في استقلال سيارات النقل، في الصعود والهبوط، ومن العناء الذي يبذلونه من أجل الحفاظ على توازن الجسد أثناء تأرجح السيارة مع مطبات الطريق. في لحظة ساخرة همست لنفسي قائلًا: «ربما رحل أبي من القرية مهاجرًا إلى القاهرة لأنه لم يألف

عربات نقل البضائع والبهائم التي يستخدمها الناس للتنقل في اللحظات القليلة التي يغادرون فيها قريتهم!».

على أطراف القرية كان خالي منتظرًا. صحبني على دراجة بخارية انتشرت في القرى حديثًا، بديلًا عن البغال والحمير، فهي أسرع في التنقل والحركة. بعد دقائق كنا في الجبل نسير داخل مقابر العائلة. أسرعت إلى قبر يوسف. لم أحدثه منذ عام، كيف تمكنت من تركه كل هذه الفترة وحيدًا في ذلك الجبل الموحش؟ ألقيت عليه السلام، وعلى أخي أحمد الراقد بجواره. خالي هو من أخبرني أن القبر المجاور لقبر يوسف هو لأخي. أمي تفضل ألا تستعيد مثل هذه الذكريات، لذلك لم تكن لتخبرني. وقفت لدقيقة أمام القبر قبل أن أتحدث، كأني ألملم أشلاء نفسي التي تناثرت على أعتاب مرض يوسف، أحاول أن أستعيد شيئًا من نفسي، أحاول أن أعتذر. طأطأت رأسي أمام قبره وهمست من دون أن ينتبه خالي الذي ظن أنني أقرأ الفاتحة:

ـ آسف يا ولدي! أخطأت في حقك! لو أنني رغبت في عمل ما أو تجارة معينة، لكان من الطبيعي أن أجمع كل ما أعرفه عن تلك التجارة أو ذلك العمل، حتى أقرر هل أخطو إلى الأمام، أم أنتظر، أم أغير السبيل. دراسة

الجدوى مهمة لأي مشروع، لكنني معك لم أستطلع الطريق، جئت بك هكذا في لحظة جهل مني، لتحمل عني وزرًا ارتكبته أنا! كان يجب أن أسأل أولًا إن مرضت فهل من علاج؟ إن سعيت في الدنيا فهل من معين؟ إن سألت فهل من إجابة؟ فقط تلمست لحظة نشوتي على حساب حياتك، فأعتذر لك!

أعرف أن رحلتي لن تعوضك الرحيل، ولن تنسيك الألم، ولن تُذهب عنك ما عانيته في أربعة وخمسين يومًا هي كل عمرك على الأرض، لكنها ربما هدَّأت من صخب يدب في أوصال عمري، يحاول أن يسلبني رغبتي في الاستمرار. في البداية كنت أظن أن الهدف من هذه الرحلة هو أن أسمع حكايات الناس عن الموت والحياة، ثم أستخلص أحسنها حتى تليق بمجاورتك. كنت أظن أنني أقدم لهم سبيل النجاة، لكن كل خطوة في رحلتي أظهرت أنني أنا من أبحث عن العون وليسوا هم، أستكشف في جنبات حكاياتهم وسيلة راحة، أو أكتشف نفسي التي تلاشت، أو كادت تتلاشى.

أعرف يا ولدي أنني تأخرت عشرة أيام من مولدك قبل أن أدرك وجعك. لن أحيل إهمالي إلى قصر اليد، أو إهمال طبيب، بل إلى نفسي! كان يجب أن أنتفض منذ رأيتهم في المستشفى يهرولون بك إلى غرفة العناية المركزة،

لكنني استكنت إلى نفسي بقدومك، ولم أكن أعلم أن استكانتي ستكون أول تمهيد لرحيلك! أعلم أن ذهابك كان مسألة وقت، وأن الأطباء جميعهم قالوا لن تعيش، لكنني أعلم أيضًا أنني لو أدركت المسألة في لحظاتها الأولى لكنت أعفيت جسدك الواهن من رحلة ألم طالت حتى اليوم الرابع والخمسين.

رحلتي هذه يا ولدي، ليست لأعتذر لك عن تقصيري، ليست لأكون عونًا للفقراء الذين رأيتهم في طوابير المستشفيات وقت مرضك، ليست لأشير للمسؤولين على مناطق الخلل. رحلتي هذه هي بحث عني، عن إنسانية تلمستها في بكائك الذي لم أسمعه لأن مرضك أعجزك حتى عن البكاء، بحث عن طريق عجزت عن البحث عنه قبل مولدك. رحلتي هي بحث عن إجابة عن سؤال يؤرقني منذ وفاتك: لو تحللتُ من استكانتي في أيامك الأولى، هل كانت الحال تغيرت وكنتَ بيننا الآن؟

* * *

نكزة على كتفي نبهتني إلى أن عاصفة رملية في الطريق، قال خالي إن جو أمشير بدأ، ونحن في الجبل. طلب أن نسرع بترك المقابر والعودة إلى القرية. أعطيته الكاميرا الخاصة بي وطلبت منه أن يلتقط صورة تجمعني بيوسف.

عجزت عن ذلك في حياته، فلن أتركه من دون ذكرى منه أمام قبره. وقفت أمامه كالتلميذ بين يدَي مُعلمه، لا أحرك ساكنًا، ذرات الرمل التي حملها الهواء تضرب وجهي، كأنها ضربات منه تعنفني.. هل لأنني تركته يرحل، أم لأنني أنظر إلى الماضي الذي لن يعود؟ انتهى خالي من التقاط الصورة. أحضر دراجته النارية وقفزت خلفه وانطلقنا. وفي طريقنا إلى القرية هاتفني يوسف، سمعته يقول بهمس اختلط بذرات الرمل المحمولة في تيار الهواء: «ابحث عن نفسك تجد حكايات الناس فيك، ساعد نفسك تساعد الناس، اضحك أولًا قبل أن تطالبهم بالكف عن البكاء».

* * *

على مشارف القرية، لاحظت مباني حديثة على طراز بناء المدن. لم تعد المباني الطينية أو المُشيدة بالحجر الجبلي موجودة. القرية تعج بالدراجات البخارية، والسيارات كثيرة، وملابس أهل المدينة حلت مكان الجلباب. مر زمن لم أحضر فيه إلى قريتي. حين دفنت ولدي يوسف منذ عام لم أنتبه، فقط واريته التراب ثم انصرفت. وحين دفنت والدي، الشيخ فايز، منذ خمس سنوات، واريته التراب وانصرفت أيضًا. أما هذه المرَّة فرؤيتي اختلفت، إذ حضرت خصيصًا كي أتأمل أحوال الناس.

قبل أن نصل إلى منزل خالي طلبت منه أن يصحبني إلى الوحدة الصحية بالقرية. ضحك وقال:

ـ لن تجد هناك شيئًا ذا بال. أنا أخبرك بما تريد.

أصبحت منازل أبناء عائلتي جميعها على طراز المدن، ارتفعت طوابق، وغطاها طلاء أسمنتي يخالف طبيعة المكان جغرافيًا، فالأسمنت يزيد من إحساس السكان بحرارة الجو في هذه الأماكن.

اختفت الترع وحلت مكانها مواسير أسمنتية أيضًا وقد غطاها التراب وتحولت إلى طرق. فتيات بزي المدرسة يملأن الطرقات. محل تتوسطه طاولة بلياردو يصطف حولها مراهقون، بعضهم يرتدي الجلباب والبعض الآخر القمصان والبناطيل الجينز.

تذكرت حكايات أمي عن قريتها حين كانت في السادسة من عمرها، كانت تحكي عن أذان الفجر الذي يستيقظ عليه الجميع، وبعد أداء الصلاة يتوجهون إلى أراضيهم يزرعونها، ثم على الظهيرة يعودون إلى منازلهم اتقاء حر الشمس، فترى الطرقات خاوية على عروشها، بعد العصر يذهبون مرَّة أخرى إلى الأرض، وفي المساء ترى الجميع يعودون أفواجًا إلى منازلهم، يجُرون خلفهم مواشيهم. لطالما حكت أمي عن ذلك البيت الطيني،

وعن جريد النخل الذي يغطي السقف، وعن الراديو الذي ميز بيت والدها عن البيوت الأخرى، والورقة التي كان يقطعها كل صباح من نتيجة علقت في زاوية المسجد ليتميز عن الجميع بأنه يعرف الأيام والشهور ومواقيت الصلاة. كنت أجلس إلى أمي وأسمع كل ذلك وأكثر، في حكايات لم تبخل علينا بها، وتجعلنا اليوم أكثر حنينًا إلى قريتنا. أما ما أشاهده الآن فلا علاقة له بهذه الصورة التي رُسمت في مخيلتي، حيث أرى مكاتب كمبيوتر بها شبكات إنترنت وصفحات فيس بوك يجلس إليها شباب ورجال، وأرضًا خضراء تتوسطها مبانٍ أسمنتية، ودكاكين متعددة تحوي ثلاجات فيها أنواع مختلفة من المأكولات والبضائع!

قاطع خالي تأملاتي حين أخبرني أننا وصلنا. هو يقيم في المنزل نفسه الذي ولدت فيه قبل ثلاثين عامًا. أذكر شذرات من طفولتي في هذا البيت المبني بالطوب الأحمر: لمبة الجاز التي كانت تعلق في الحائط للإضاءة، ووابور الجاز الذي لم يكن يغادر مجلس جدتي، تستخدمه لتحضير الطعام والشاي للضيوف.

عدت لأسأل خالي مرَّة أخرى عن الوحدة الصحية، فسألني بدوره عن السبب، أخبرته أنني أُحضر كتابًا عن

المنظومة الصحية في مصر، أقابل الناس وأسمع قصصهم مع المرض، وأزور الوحدات الصحية والمستشفيات الحكومية في المحافظات المختلفة لأعرف شكوى روادها.

اعتدل خالي في جلسته وقال في ثبات من يعرف الإجابة سلفًا:

ـ فيه فائدة من اللي هتكتبه يعني؟ حد هيقرأ لك؟ ولو كلامك اتقرأ فيه مسؤول هيتحرك؟

بوجه ساخر يخبرني أن لا فائدة من مسعاي. تعجبت من نبرة اليأس التي يتحدث بها، خصوصًا وأنا أعرف رحلته في الحياة، وكيف واجه صعابًا كثيرة قبل أن يستقر في النهاية على ما هو عليه. قلت إنني أقوم بواجبي ولا أنتظر نتيجة، وتحركي ليس مشروطًا بتحرك المسؤول، لكنني بمجرد أن أرصد الخطأ وأقدم التصور، أعفي نفسي من المسؤولية الواقعة عليَّ.

لم يستسلم لكلماتي وظل على رأيه، لكنه لم يُرد أن يتركني أرحل خالي الوفاض، فقال:

ـ الوحدة الصحية، لو ذهبنا إليها فلن نجد الطبيب، ولو وجدناه فلن نجد دواء، ولو وجدناهما فالطبيب

لن يكتشف حقيقة مرضك، إذ ترسل لنا مديرية الصحة طلابًا حديثي عهد بالطب، يتدربون في أجسادنا، يصيبون مرَّة ويخطئون مرات! ثم إذا اشتد عود أحدهم رحل، وجاء غيره ليبدأ دورة جديدة، وهكذا كل عام! قديمًا كنت أذهب إلى الوحدة الصحية إن مسَّني ألم، لا أقف في طوابير المرضى، ففي الوحدة الصحية توجد تذكرة بثمن بخس للجميع، وأخرى بثمن أغلى لمن هم أوفر حظًّا. من يشتري تذكرة بجوز جنيهات عليه أن ينتظر دوره، أما أنا فأدفع خمستاشر لحلوح حتى لا أنتظر دوري!

هنا اعترضت على الحديث، وأخبرته أن الكشف والعلاج في هذه الوحدات بالمجان، فقال:

ـ كان ذلك في الماضي، أما الآن فالورقة في الصباح بسعر، وبعد الثانية ظهرًا بسعر آخر، والدواء لم يعد مجانيًّا، هذا إن وجدته من الأساس!

توقف خالي عن وصف حال الوحدة الصحية، وحكى لي عن تجربته مع مرض أصابه حديثًا. قال:

ـ أعرف أنك تعلم شذرات من الحكاية، لكنك لا تعلم كواليس ما حدث. شعرت بوجع في يوم ما، فذهبت إلى طبيب الوحدة الصحية فأعطاني دواء. بعد وقت

لم ينقطع الألم فعدت مرَّة أخرى فأعطاني دواء آخر، لكن الألم استمر، فذهبت إلى طبيب ثانٍ لكن في عيادة خاصة، فأخبرني أن هناك اشتباهًا في إصابتي بفيروس الكبد الوبائي سي. رفض عقلي تصديق ما سمعت: يحسدني أقراني على صحتي وجسماني الفارع، ولم أشتكِ يومًا من مرض ما! ذهبت إلى طبيب آخر فقال إنني غير مصاب بأي فيروس في الكبد. هنا ضرب الهم رأسي وقلت لنفسي: من أصدق، طبيب الوحدة الصحية أم طبيب العيادة الخاصة أم الطبيب الثالث؟ قررت أن أذهب إلى القاهرة لإجراء فحوصات طبية بشكل أوسع، خلال هذه المدة أهملت أرضي وحياتي، وضربني الهم. كان السؤال الذي يراودني دومًا: كيف ستكون حال أطفالي من بعدي؟ وكان الوجع الأكبر يكمن في أن المرض ضرب جسدي الأربعيني، ذلك الجسد الذي هو عماد حياتي ـ بقوته أزرع وأحصد وأرعى ماشيتي وأرضي. تذكرت والدي الذي ضربه المرض في شبابه، وكيف أننا اضطررنا أن نخرج ونحن أطفال، أنا وإخوتي الثلاثة، للزراعة في الأرض، لنحل مكانه، وكان أكبر إخوتي في التاسعة من العمر، أربعة أطفال يزرعون ويحصدون ويقيمون عماد البيت ـ هل سيكون ذلك مصير أطفالي؟

بعد أيام من تنقلي في مستشفيات القاهرة خرجت نتيجة الفحوصات الطبية لتحل اللغز. قال الطبيب القاهري إن الإصابة بفيروس كبدي ظهرت بالفعل في الفحوصات الأولى، وحين لم تظهر في التحاليل الأخرى كان ذلك نتيجة أن مناعتي تغلبت على المرض، فأسكنته. لكن الطبيب طلب مني أن أعيد الكشف بشكل دوري، لأن المرض من المحتمل أن يعود. وفي النهاية قال إن العامل النفسي مهم في مقاومة المرض، وإن تردي الحالة النفسية التي مررت بها مؤخرًا كان من الممكن أن يُضعف مناعتي ليسيطر الفيروس على جسدي.

سألت خالي إن كان بالفعل سيعود إلى المستشفى لإجراء كشف دوري، فقال بلا تردد:

ـ بالطبع لن أعود!

وأكمل قائلًا:

ـ إن الألم الذي استشعرته حين مررت بتجربة المرض أقوى من ألم المرض ذاته، لم أجد طبيبًا يشخص حالتي، في ثلاثة أسابيع أنفقت عشرة آلاف جنيه فقط في الفحوصات الطبية لأعرف إن كنت مريضًا أم لا. تعلمت من هذه التجربة شيئًا مهمًّا.

اعتدل خالي في جلسته ثم قال ونبرة حزن تصبغ صوته:

ـ أظن أن المرض أهون من زيارة طبيب مصري! لن أعيد الكشف، وإن عاد المرض أريد أن أموت وأن أجهل وجوده، لأنني أعلم أن زيارة المستشفيات في مصر تزيد المرض لا تداويه!

* * *

تخيلت مظاهر الحداثة في قريتي: المباني الأسمنتية، خبز الفرن الآلي، دكاكين المواد التموينية، ثلاجات المياه الغازية، مكاتب الكمبيوتر وصفحات الفيس بوك، طاولة البلياردو، الدراجات النارية، وملابس أهل المدينة، جميعها مظاهر حضرية أفقدت القرية ميزتها. لكن هذه المظاهر القشرية، وإن كانت مهمة وطبيعية في تطور المجتمعات، إلا أنها لم تتوغل في الوحدة الصحية، أو في مستشفى المركز، ولم تسيطر بعد على ذلك الشيخ الذي ستجده في كل قرية، يعالج الناس بالقرآن، بعد أن يسلبهم بعض المال والقربان. في القرى يحصل الناس على فضلات الحداثة التي تلقيها عليهم الحكومات، لكن لم يفكر أحد أن يهتم بالتعليم والصحة أو بمقاومة الفقر وتردي الحال. فكرت: ماذا لو كانت الحال في بقية قرى الجنوب مثل ما رأيت

في محافظة الفيوم ومحافظة بني سويف؟ جن الليل فعكفت على كلماتي، أكتبها تحت عنوان: «حكاية يوسف: الحياة والموت في بر مصر».

* * *

خرجت من قريتي إلى مركز اللاهون، ومنه انتقلت عن طريق عربة نقل إلى محافظة بني سويف، ثم في حافلة أخرى وجهت وجهي شطر مركز مطاي محافظة المنيا، قرية «أبو عزيز». لم يسعفني الوقت لترتيب مكان إقامتي في المحافظة. مضيفتي في القرية فتاة تعمل في صيدلية، من المؤكد أنه من الصعب أن تستقبلني في منزلها، خصوصًا أنها قروية، مسيحية، وتعيش في محافظة في جنوب مصر شهيرة بحوادث الفتنة الطائفية.

السفر إلى الصعيد سالكًا الطريق الزراعي أكثر حياة من السفر مستخدمًا الطريق الصحراوي. على طول الطريق الزراعي تمر بقُرى، بزروع، بحياة. سافرت كثيرًا متخذًا الطريق الصحراوي سبيلًا، حيث لا تشاهد سوى الصحراء التي لا نهاية لها على جانبَي الطريق. لكن الوضع مختلف هنا: على طول الطريق الزراعي، ستشاهد قرى على يسار فرع النيل تتخذ من الجبال بيوتًا (عرفت الآن لماذا تسيطر دائمًا على الأعمال الدرامية التي ترصد قرى الجنوب فكرة

مطاريد الجبل، مجموعات من الخارجين عن القانون يتخذون من كهوف الجبل ملاذًا من مطاردات قوات الأمن، وفي الليل يهبطون إلى القرى يستحلون زروعها ومواشيها لتكون سبيلًا لمواجهة الجبال القاحلة)، فسلاسل الجبال تمر بأطراف القرى على طول خط الصعيد، ومن الطبيعي أن تجد المنازل قد تمددت داخل الجبل، ومن الطبيعي أن تشهد منزلًا أحد جوانبه حافة الجبل، أو أقيم أعلاه. منازل أقيمت من طابق واحد، بعضها من الطين، وبعضها من الحجارة الجبلية. كشف ذلك المشهد أن ما شاهدته في محافظتَي الفيوم وبني سويف أفضل حالًا، وأنني لم أرَ مصر الحقيقية بعد، حتى الحداثة القشرية التي انتقدتها سابقًا غابت عن أماكن أخرى في مصر.

في مدينة مطاي أرشدني أحد المارة إلى طريق قال إنني سأجد في نهايته سيارات نقل إلى قرية «أبو عزيز». بعد دقائق ظهرت السيارات، رآني السائق فأشار لي أن أجلس بجواره داخل الكابينة. من السهل على أبناء القرى إدراك الغرباء، فربما أراد أن يكرم ضيافتي بإعفائي من التمدد في الصندوق الخلفي وتلقي العاصفة الترابية مثل بقية الركاب. دقائق وامتلأ الصندوق بأكوام اللحم، لا توجد كراسي يجلسون عليها، جانب صندوق العربة هو الوسيلة

الوحيدة للمحافظة على اتزان الراكب عن طريق الإمساك به، لو اصطدمت به مع المطبات وانحناءات الطريق فلا تغضب، ذلك هو المعتاد.

سائق السيارة مراهق في السادسة عشرة من عمره، وجلس معنا في منتصف الكابينة زميل له في العمر نفسه تقريبًا. في الطريق، تحدث السائق عن أخيه الأكبر وحكايته مع ثورة يناير ٢٠١١. قال إن أخاه التحق بالجندية وقت الثورة، كان سائقًا في قوات الأمن المركزي. نكز السائق زميله ضاحكًا كأنه تذكر شيئًا وقال بسخرية:

ـ فاكر شكله كان عامل إزاي لما رجع من مصر؟

رد زميله بعد أن أرسل ضحكة أتبعها بصوت من خيشومه:

ـ طبعًا فاكر، دراعه اليمين في الجبس ووشه كان أخضر.

علمت من حديثهم أن المتظاهرين ألقوا السيارة التي كان يقودها الأخ الأكبر للسائق من أعلى الكوبري. كُتبت له الحياة، لكنه عاد مهشمًا وقد تبدل لون وجهه من كثرة الكدمات. يكمل السائق أن أخاه عمل لفترة على سيارة نقل الركاب داخل القرية، وكان يقود بيد واحدة بسبب يده الأخرى التي لم تُنزع عنها جبيرتها. صمت الاثنان لدقيقة كأنهما تذكرا أن الحال تستوجب الوجع وليس الضحك.

نظر السائق ناحيتي وقال:

ـ إنت منين يا بلدينا؟

أخبرته أنني من القاهرة وحضرت في عمل إلى محافظة المنيا. أردت أن أعرف حكاية أخيه فتدخلت في الكلام وسألت:

ـ وأخوك فين أراضيه؟

تبادل السائق وزميله نظرات اعتراها الحزن، ثم قال السائق:

ـ هج من البلد من تلات سنين وسافر ليبيا!

اندهشت من سفرية ليبيا، خصوصًا حين لاحظت الصليب الذي دُقَّ على ذراع السائق، وأخبرته أن الوضع في ليبيا غير آمن. هنا ضج السائق وزميله بالضحك، ثم قال السائق:

ـ هيَّ موتة ولَّا أكتر، يعني اللي هنا عارف يعيش؟!

* * *

قبل أن أنتقل بين قرى محافظات الصعيد لم أكن أنتبه إلى ديانة المتحدث، أما في قرى الجنوب فلستَ بحاجة لأن تنتبه، لأن تمييز الأقباط من المسلمين في الجنوب مسألة بسيطة. يتميز الأقباط بملابس وشكل معينين،

أي فتاة سافرة من المؤكد أنها قبطية. تعاملت مع أصدقاء وصديقات في القاهرة لسنوات ولم أنتبه لدينهم. أذكر في مرَّة أن والد أحد الأصدقاء تُوفِّي، ثم هاتفني صديق مشترك وقال إن القداس سيقام في كنيسة بحي العجوزة، هنا صمتُّ لثوانٍ وسألْت:

ـ أليس مسلمًا؟

فسخر صديقي مني وقال:

ـ مسلم إزاي وأبوه اسمه حنا؟!

في قرى الجنوب الوضع مختلف، أول ما يجب أن تعرفه عن محدثك هو ديانته، وهذه مسألة بسيطة: الحجاب يفرق بين النساء، ولن تجد صعوبة في رؤية الصليب الذي دُقَّ على معصم بعض الرجال، والذي يتعمدون إظهاره ليسهل اكتشاف الديانة.

على مدخل القرية سألت عن عنوان الصيدلية التي تعمل فيها مضيفتي في المنيا، وفي خلال دقائق كنت أمامها. اندهشَت حال رؤيتي، قالت إنها توقعت أن أعدل عن الزيارة، أو ربما أجلتها للغد بسبب العاصفة الرملية، فأخبرتها أنني بدأت رحلةً راضيًا بكل معوقاتها.

مضيفتي في محافظة المنيا فتاة عشرينية ترسل بسمتها

للجميع. حياتها كمسيحية في مجتمع سُني محافظ لم تمنعها أن تبدي رأيها بصراحة في حكم التيار الديني لمصر بعد ثورة يناير، لكن على الجانب الآخر ستجدها تنشر وصلات الرقص الصوفي على صفحتها الشخصية على الفيس بوك، مثيرة استغراب أقرانها من الديانة نفسها.

رحبت مضيفتي بشدة حين طلبتُ منها استقبالي في الصيدلية التي تعمل بها في القرية، لكنها سألتني سؤالًا منطقيًا:

ـ لماذا تطلب زيارة صيدلية في قرية بمحافظة المنيا؟!

حتى عندما حضرت إلى المكان وجلست لما يقرب من الساعتين ثم استأذنتها في الانصراف منطلقًا إلى محافظة سوهاج تعجبَت، وسألَت مرَّة أخرى عن سر تكبدي عناء السفر كل هذه المسافة في ذلك الجو العاصف لزيارة صيدلية لأطرح عليها بضعة أسئلة عن الأدوية وتَوفُّرها في المكان. أجبتها هذه المرَّة بأنها ستقرأ الإجابة عن أسئلتها مفصلة في «رحلة يوسف».

لملمت حاجياتي وتركت الصيدلية، ألقيت التحية وانصرفت.

* * *

حين عرفت أنها تعمل في صيدلية ذهبت.

البحث عن الدواء كان معضلتي الكبرى مع يوسف فترة مرضه، وفي رحلتي إلى صيدلية بقرية «أبو عزيز» كنت أحاول استعادة كل ما علق بذاكرتي عن الدواء، وفي الوقت نفسه كنت أتمنى أن أجد داخل الصيدلية تكذيبًا لما شاهدته في رحلة يوسف.

عملت لفترة في واحدة من أكبر شركات بيع الدواء في الشرق الأوسط بعد ثورة يناير مباشرة. كنت مسؤولًا عن تحصيل فواتير الدواء المباع لصيدليات مركز كرداسة والقرى التابعة له. وقبل ذلك عملت لفترة في الدواء المهرب من الجمارك كمندوب توزيع. وأثناء مرض يوسف، كما سبق وأخبرت أن بكتيريا اكتُشفت في المياه الزائدة على المخ، كتب الطبيب دواء قال إنه الوحيد القادر على شفائه منها، رحلة البحث عن هذا الدواء تواصلت فيها مع أصدقاء في سبع دول، وقد عجزت عن إيجاده في بعضها ووجدته في فرنسا، ولكن الأصدقاء اشترطوا إرسال روشتة بالدواء موقَّعة من الطبيب المعالج لصرف الدواء. في ظل ذلك التيه حدَّثت صديقًا آخر يعمل في صيدلية بمنطقة السيدة زينب، وفي خلال ساعات أحضر الدواء البديل من السوق السوداء.

في الغالب لن تجد الدواء في المستشفيات الحكومية، وفي

الغالب أيضًا لن تجد بعض أنواع الأدوية في الصيدليات، ربما وجدت أنواعًا معينة في سلاسل الصيدليات الكبرى، لكنك لن تجد كل الأنواع. عملي في مجال الدواء لفترة سمح لي بإدراك جانب من الأزمة.

الدواء الذي طلبه الطبيب يطلق عليه أصحاب هذا المجال «دواء ثلاجة»، لأنه يحتاج إلى أن يظل في درجة حرارة معينة، وبعد فتح العبوة تنتهي الصلاحية في فترة محدودة. شركات توزيع الدواء الكبرى ترفض استرجاع هذا النوع من الدواء لأنه في الغالب يتلف ويسبب لها خسائر، بالتالي أصحاب الصيدليات يرفضون اقتناء معظم هذه الأدوية في صيدلياتهم لأنها تسبب لهم الخسائر إن لم تُبع. بعض هذه الأدوية المهمة منع أصحاب الشركات تصنيعها بسبب ارتفاع سعر خاماتها المستوردة. مع الوضع في الاعتبار التسعير الجبري للدواء ومشقة محاولة رفع سعره، فإن مصانع الأدوية رأت أنه من الأسلم عدم تصنيع دواء خسائره أقرب. وموزعو الدواء الأكبر في مصر لا يستوردون أنواعًا معينة من الأدوية التي يبقى الطلب عليها ضعيفًا. مُصنِّع الدواء وموزعه وبائعه في الأساس جميعهم تجار، يبحثون عن الربح، ولن يسعى أصحاب هذه المنظومة إلى توفير دواء يحتاجه مريض مع

العلم أنه غير مربح. من المفترض أن توفر شركات الدواء الحكومية هذه الأدوية عن طريق منافذها في صيدليات الإسعاف.

عندما بحثت في المسألة عرفت أن الدواء الذي يتلف أو تنتهي مدة صلاحيته قبل بيعه في صيدليات الإسعاف يتحمل ثمنه أمناء مخازن هذه الصيدليات طبقًا للبيروقراطية الحكومية، وبالتالي لن تجد بعض الأدوية في صيدليات الحكومة لأن الأمناء يعفون أنفسهم من مغبة تحمل ثمن الدواء إن فسد.

أزمة نقص الدواء كانت سببًا في إنشاء سوق سوداء بديلة للسوق الشرعية، وهي سوق تقوم على الأدوية التي تأتي مهربة من الخارج من دون موافقة وزارة الصحة، وبالتالي من دون دفع رسومها. عملت في هذه التجارة أثناء السنوات الأخيرة من دراستي الجامعية، لكنني لم أستمر فيها طويلًا على الرغم من أرباحها الطائلة، لما لمسته فيها من شبهة اتجار في أوجاع الناس ومخالفة للقانون. التجربة في حد ذاتها كانت مهمة لأعرف كواليس تجارة لا تقل ربحًا عن تجارة المخدرات. تعتمد هذه التجارة على توفير دواء تعجز المؤسسات القانونية أن توفره، وهذه التجارة لها رافدان: الأول هو الدواء المهرب من تركيا

والهند (خصوصًا السوق الهندية لانخفاض أسعار الدواء هناك)، والثاني عرفته أثناء رحلة الكتابة وكان رافدًا مدهشًا ومحيرًا، وسيلة الاتصال في هذا الرافد هم سماسرة الدواء (أشخاص يقفون أمام منافذ صرف الدواء الحكومي)، والأدوية هي لمعالجة أمراض خطيرة مثل السرطان لن تجدها سوى في هذه المنافذ. يعرض السماسرة على الفقراء من المرضى، الذين يصرفون هذه الأدوية، شراءها منهم مقابل مبالغ مالية ضخمة بالنسبة إلى المرضى، ثم يعيدون بيعها إليهم عن طريق السوق السوداء.

قال لي أحد أصدقائي الصيادلة، معلقًا على اندهاشي من ذلك المريض الذي يعلم أنه يقتل نفسه ببيعه سبيل شفائه الوحيد:

ـ هوَّ بيأمن مستقبل ولاده لأنه كده كده ميت، لو باع الدواء اللي هيتصرفله على مدار كام شهر قبل وفاته هيقدر يسيب لأهله فلوس يعيشوا منها!

سألت صديقي: من يقبل من الصيادلة شراء مثل ذلك الدواء غير المصرح ببيعه سوى في صيدليات الحكومة، وهم يعلمون مصدره وأنه علاج لمريض في طريقه إلى الموت الآن؟ من دون سابق إنذار، أجرى صديقي مكالمة بإحدى سلاسل الصيدليات الكبرى، ثم أعطاني الهاتف

وطلب مني أن أسأل عن دواء معين إن كان متوفرًا أم لا، وعن سعره. بعد فترة انتظار، أجاب الصيدلي المسؤول وقال إن سعر الدواء ١١ ألف جنيه. ذهلت من الرقم، خصوصًا عندما عرفت أن الدواء يكفي شهرًا واحدًا، وأنه يعالج مرضًا يحتاج فترة علاج ثلاثة أشهر.

من المؤكد أن هذه الأدوية لن تجد طريقها إلى قرية «أبو عزيز»، لأنها لا تجد طريقها من الأساس إلى العاصمة، أو حتى المحافظات الكبرى في مصر. ذهبت إلى قرية «أبو عزيز» فقط لأكتب عن الدواء الذي ربما يكون أحد أسباب الرحيل عندما نعجز عن الوصول إليه. تلمست من حال الناس هناك خيطًا أبدأ منه الكتابة، وأنتهي منه إلى حقيقة سوق سوداء تتاجر في أوجاعنا ولا ترحم.

* * *

خرجت من قرية «أبو عزيز» والعاصفة الرملية تشتد، استأجرت سيارة نقل خاصة حتى لا أنتظر اكتمال عدد ركابها. انطلق بنا السائق حتى مدينة مطاي. من هناك وجدت سيارة ميكروباص إلى مدينة المنيا، قرابة الساعة انتظرتها حتى اكتمل عدد ركابها. في مدينة المنيا لم أجد سيارة تنقلني مباشرة إلى محافظة سوهاج، أجمع الناس على أن ذلك يتوفر فقط في الصباح وأن الوقت قد تأخر،

فالساعة الآن السادسة مساء. ويعتبر أهل الجنوب السادسة وقتًا متأخرًا كي تجد وسيلة مواصلات، ليس أمامك عندها سوى أن تستقل القطار أو سيارة إلى محافظة أسيوط ومنها تنتقل إلى محافظة سوهاج. ساعة أخرى حتى اكتملت السيارة المتوجهة إلى أسيوط. في الطريق كانت تضرب رأسي حكايات مختلفة، لكن الأسئلة أكثر من الحكايات. تساءلت: ما الذي أبحث عنه بالضبط؟ هل جئت قاصدًا الوحدات الصحية والمستشفيات أجمع حكايات المرض والموت وأُدوِّن مشقة الناس في البحث عن دواء يشفي مرضاهم من داء يعجزون عن كشفه؟ هل جئت وأنا أعرف أصلًا ماهية الحكاية التي أريدها، أم أنني جئت باحثًا عن سرها؟ حتى الآن أتلعثم في الرد على من يسألني لماذا أرتحل كل هذه المسافة. في الغالب أذكر حكاية يوسف وقصة الكتاب. المؤكد حتى الآن أنني لا أعرف إن كنت فعلًا أبحث عن حكاية، أم أنني أكمل حكاية يوسف التي لم تكتمل بعد، مع اعتبار أن الموت له أنواع، وأن موت الجسد أحدها، وأن الروح تظل وتبقى. أشعر أن يوسف معي، يدفعني، تحركني روحه، تناديني: «هذا كتابي أكتبه، وأنت يا أبي قلمي في الرحلة أسطر به حروف الكتاب».

* * *

بعد ساعة من تحرك الميكروباص في اتجاه سوهاج وجدت نفسي في طريق مظلم بين جبلين، طريق من حارتين من دون أي فاصل بينهما، حارة للذاهب إلى سوهاج وحارة للعائد منها. السائق يكاد يرى أمامه بضعة مترات، الجميع في السيارة راوده النوم إلا أنا وهو. كيف أنام وأنا أسير في طريق أقل ما يوصف أنه سبيل الموت، وقد وضعت نفسي في لعبة حظ لا أعرف هل أخرج منها حيًّا أم لا!

في الثامنة مساء كنت في محافظة أسيوط، وانتظرت هناك ساعة أخرى حتى اكتمل الميكروباص المتوجه إلى سوهاج. جلس بجواري رجل في العقد الرابع من عمره بصحبة والدته المُسنة المريضة، انتبهت لحديثه من دون قصد مني حين رن هاتفه فأجاب بصوت عالٍ أنه أنهى لقاء الطبيب في أسيوط وأنه عائد إلى سوهاج. رد على محدثه عبر الهاتف أنه أحسن حين خرج باكرًا، وكان تفسيره أنه لولا ذلك لتأخر لدى الطبيب، مؤكِّدًا أن العودة في اليوم نفسه كانت ستكون صعبة بأي حال. وددت لو سألته إن كان لا يوجد أطباء أو مستشفيات في محافظة سوهاج لمتابعة حالة والدته، لكن نبرة حادة بدأت تظهر في حديث الناس كلما اقتربت من جنوب

مصر جعلتني ألتزم الصمت. الناس في الجنوب ليسوا بمثل ود أهل الدلتا مع الغرباء، فهم لا يحبون أن يتدخل غريب في أحوالهم.

وصلت سوهاج في الحادية عشرة مساء. قبل وصولي بساعات كنت قد أجريت مكالمة هاتفية مع صديقة هناك وفَّرت لي على إثرها إقامة في مقر جمعية لتحفيظ القرآن. في هذا المكان كانت إقامتي ليومين.

في الصباح، أجريت مكالمة هاتفية مع صديق يعيش في الصوامعة شرق مركز أخميم، طلبت منه استضافتي في قريته، وأخبرته أنني أعمل على موضوع صحفي وأنني أريد زيارة الوحدة الصحية في المكان.

* * *

على مشارف الصوامعة شرق انتظرني صديقي. كالعادة سألني، بدهشة أكبر من سابقيه. هكذا كلما توغلت في الجنوب، وبعدت المسافة عن القاهرة، زادت دهشة طارح السؤال:

ـ إنت عاوز إيه بالظبط؟

بدأت أملُّ من كثرة شرح الفكرة. لقد خرجت من منزلي في رحلة للبحث عن المجهول، المؤكد أنني أُسطر كتابًا

عن ولدي المتوفَّى يوسف، أحاول من خلاله مداواة ذلك الوجع الذي لازمني منذ ولادته وبعد رحيله. لكن هل يقتنع صديقي، الذي يسكن في قرية في قلب الجبل في صعيد مصر داخل محافظة تبعد عن القاهرة مسافة ٤٩٥ كيلومترًا، حين أخبره أنني أتيت باحثًا عن شيء أجهله؟ أنني جئت أكتب عن الناس؟

وجدت نفسي لاإراديًّا أخبره أنني حضرت لكتابة موضوع صحفي للجرنال عن الحالة الصحية لأهل المكان، في محاولة لتحريك المسؤولين لخدمة أهالي الصوامعة شرق. هنا تنبه صديقي أن الأمر جلل وقرر أن يساعدني. هكذا تكون المسألة منطقية. بعد أن اقتنع صديقي اتصل بأحد أبناء عمومته ليصحبني في رحلتي داخل القرية، وتحرك هو ليلحق بموعد عمله في أحد المحلات بمنطقة «ساقلتة».

حضر ابن عمه، وهو شاب في الرابعة عشرة من عمره. صحبني الشاب إلى الوحدة الصحية للصوامعة شرق. على الباب رأيت كهلًا يرتدي جلبابًا ويجلس بصحبة آخرين، ظننت في البداية أنه حارس المكان. دخلت إلى الوحدة أبحث عن أحد فلم أجد، على يميني لفت انتباهي مشهد المرحاض فساقتني قدماي ناحيته: حالة من التردي

غير الآدمية للمرحاض في وحدة صحية جعلتني أتراجع خطوة. حضر الشاب يخبرني أن مدير المكان يقف في الخارج، تبعته فرأيت مرَّة أخرى ذلك الرجل الذي ظننته حارسًا، وقف أمامي بجلبابه وقال بغلظة:

ـ بتسأل على مين حضرتك؟

أجبت:

ـ على الدكتور المسؤول.

فقال إن الطبيب لم يحضر إلى المركز منذ أيام.

سألت عن الممرضات، رد بالنفي أيضًا. حاول الرجل أن يستوضح مني أسباب السؤال، لكنني أجبته بحالة من اللامبالاة بسؤاله قائلًا:

ـ مش مهم، هابقى أشوفهم وقت تاني.

تركت المكان ورحلت، ومدير الوحدة يرمقني بنظرة قلق هذه المرَّة، ربما ظن أنني مفتش من وزارة الصحة، من الصعب أن يفكر في مسألة الصحافة، لن يرهق صحفي نفسه ويحضر كل هذه المسافة ليزور قرية في قلب الجبل ويكتب عن أهلها الذين لا يشعر بحالهم أحد من الأصل.

الشاب الذي يصحبني سألني بدوره عن الموضوع

الذي أكتبه للجرنال، أعطيته الإجابة نفسها التي أعطيتها لصديقي.

قال إن المكان يضم مركزًا آخر لكن في نهاية القرية، حاول أن ينادي على أحد سائقي التوكتوك لكنني رفضت وطلبت أن نسير على الأقدام، لنشاهد الناس والمكان، فقد جئت كل هذه المسافة لأتأمل في وجوه الناس لا لأحشر نفسي في صندوق من الصفيح.

في منتصف القرية، على مقربة من الجبل، وجدت في جزء من الشارع الذي أسير فيه مباني أثرية على جانبَي الطريق، ويغطي الشارع الفاصل بينهما سقف من الخشب تعلوه مبانٍ أخرى. كانت المباني في هذه المنطقة تختلف عن بقية أشكال البناء، أقرب إلى المباني المملوكية. لكن في نهاية ذلك الجزء من الشارع بدأت في الظهور محلات على الطراز الحديث تضم رفوفها هواتف خلوية وأجهزة الحاسب الآلي. مبانٍ طينية هدمها أصحابها وقد دبت فيها آلات البناء الحديثة تقيم عمارة على شاكلة عمارات القاهرة. القشور الحداثية نفسها تظهر في أغلب المحافظات، لكن على الجانب الآخر وحدات وزارة الصحة لا زالت كما هي، مدارس وزارة التربية والتعليم كما هي. باقي الوزارات الخدمية لم تجد طريقها إلى

هذه الأماكن البعيدة، يكفيها فقط أنها تبذل كل جهد لتخرج محافظة القاهرة في أبهى صورها، متجاهلة أن هناك محافظات أخرى يقطنها مصريون، وأن هؤلاء المصريين يلوذون هربًا إلى دول أخرى بطرق غير شرعية لأنه لا أحد ينتبه لهم.

تذكرت مقابلة تلفزيونية مع أحد الشباب من الأقاليم، والذي فشل في محاولة هجرة غير شرعية إلى سواحل إيطاليا. لا أنسى مذيعة التلفزيون وهي تسأله كيف يُعرض حياته للخطر، وتخبره أنه كاد يموت لولا أنقذته العناية الإلهية. هنا رد الشاب ردًّا لا يزال عالقًا في ذهني على الرغم من مرور سنوات. قال الشاب:

ـ هاتصرَّف في فلوس وهاسافر تاني وتالت، كده كده أنا أصلًا ميت هنا، يبقى موت بموت السفر أفضل!

* * *

ولدي العزيز يوسف..

بعد التحية.

أعرف أنك رحلت منذ عام، أنك لن تسمع ما أقوله، ولن تقرأ ما أكتبه، لكنَّ شيئًا في مخيلتي يخبرني أن روحك لا تزال هنا، تبصرني، ولهذا أكتب لك.

انتهيت يا ولدي من زيارة محافظات الفيوم، وبني سويف، والمنيا، وسوهاج. في البداية ظننت أنني خرجت بحثًا عن إجابة عن سؤال أعرفه، ظننت أنني أسطر كتابًا تحيا فيه، يحمل اسمك كي تعيش بيننا. أردت أن أقهر موتك بالكتابة عنك، أردت أن أخلدك ميتًا يا ولدي. سأموت أنا، وتموت أمك، وسوف تظل أنت حيًّا على رفوف المكتبات بين جلدتَي كتاب يحمل اسمك، لكن الرحلة أضحت أصعب مما ظننت على قلب والدك، الموجوع في الأساس منذ رحيلك. لا أقول ذلك لأهرب من كتاب يُخلدك بيننا، لكن السؤال الذي خرجت من منزلي بقرية «كفر غطاطي» مركز كرداسة أحمله في رأسي أصبح أسئلة عديدة جمعتها من قرية «بركة» محافظة الفيوم وقرية «الحمام» محافظة بني سويف وقرية «أبو عزيز» محافظة المنيا وقرية «الصوامعة» محافظة سوهاج. جميعها قرى تضم الموت حيًّا بين جدرانها يا ولدي! فبعد أن كنت أهرب من موتك بكتاب عنك يُخلدك أصبحت أهرب من موت كل هؤلاء الذين لا يجدون مَن يُخلدهم بآلاف الكتب التي تحمل أسماءهم.

ولدي يوسف، هل أخطأت حين قررت خوض هذه الرحلة؟ هل أخطأت حين نكأت جرح رحيلك، ذلك

الجرح الذي لم يندمل على الرغم من مرور عام كامل على ذهابك؟ هل أخطأت يا ولدي حين سألت لماذا يعيش الناس في أوجاعهم من دون أن يشعر بهم أحد؟

ولدي يوسف، يعلم الله كم أحببتك، الجميع يتعجب كيف أحببتك كل هذا الحب مع العلم أنك لم تعش بيننا سوى أربعة وخمسين يومًا، هم يحسبونها بالأيام والساعات يا ولدي، وأنا أحسبها بما تركته أنت في نفسي، فما حدث لي برحيلك تفنى أعمار قبل أن تصل إلى شواطئه. ربما كانت رحلتي محاولة للملمة شتات نفسي، أو لملمة ما نثرته عليَّ من فيض حكمتك. نعم لم أسمع صوتك، ولا حتى بكاءك، بسبب ذلك المرض الذي أصاب دماغك، بالكاد رأيت بريق عينيك مرَّة أو مرتين. لكنني يا ولدي كنت أحاكيك كل ليلة، أسمعك وتسمعني، روحي أخبرتني أنك تخاطبني، فكنت أرسل معها كل ليلة خطابًا، أخبرك من خلاله كيف الحال، وكيف المآل.

ولدي يوسف، أريد روحك أن تحدثني كما كانت في حياتك، هل تسمعني؟ أحتاج كلماتك التي كانت تُضمِّد ألمي، أعرف أنك هنا، أعرف أن حائلًا بين عالمين يصدك عني، لكنني أيضًا أشعر بك، بنسمات صوتك الذي لم أسمعه في حياتك، يناديني أن أستمر.

سأستمر يا ولدي، حتى لو لم أجد إجابة عن كل هذه التساؤلات، حتى لو لم ألملم نفسي، حتى لو لم أطبب وجعي، سأستمر حتى تعيش أنت. سأكتب حتى لا أترك موتك ينتصر في معركة رحيلك، لن يصرعني الموت كما صرعك من قبل يا ولدي، أعدك أنه لن يسلبني روحي قبل أن تخلد أنت.

* * *

أتمدد على السرير وبقايا حلم تشدني إليه. أحاول الاستيقاظ هربًا لكن الحلم يقيدني. أراني واقفًا في الدور الخامس داخل مستشفى أبو الريش رعاية المخ والأعصاب، وأنا ألملم قبضات قلبي وأهدئ سرعة شهيقي وزفيري. أجلس القرفصاء ويدي تغطي رأسي، أكاد أبكي. أقف منتصبًا فجأة، مهرولًا في المكان، أسرع إلى غرفة الطبيب المعالج، أقف أمامها أدق الباب، لا أحد يسمعني، أعود مسرعًا إلى الرعاية المركزة التي تستقبل بين جنباتها يوسف، أنادي على من بالداخل ولا أحد يسمعني، أعود مهرولًا حيث لا أدري أين أذهب. أستيقظ داخل الحلم في حلم آخر وأنا أنتقل بين المحافظات، أراني أقص حكاياتي على غرباء في انتظار أن أسمع بدوري حكاياتهم، حالة يأس دبت في نفسي داخل الحلم، الناس

متشابهون، الحكايات واحدة، الألم واحد، لا جديد في رحلتي. أمنع نفسي عن الجري، أقف، أركع وقد أسندت يديَّ على قدميَّ، أنفاسي تخرج مسرعة تكاد تنزع قلبي من مكانه، أشعر بروحي تنسحب مني، تنسحب، صدري يضيق. أقفز من السرير فجأة وضربات قلبي تلهث، أنظر في الغرفة فلا أجدني في محافظة سوهاج. أتجاوز الخيط الفاصل بين الصحو والنوم، أنظر إلى الطاولة بجواري، أمسك بورقة كتب عليها عنوان المكان ورقم الهاتف، فندق الياسمين، مدينة قنا.

* * *

حين استيقظت في الفندق تذكرت ما حدث. كنت أقف بالأمس أمام النيل بمدينة نجع حمادي في انتظار مضيفتي داخل المدينة، الجبل على الشاطئ الآخر، وخلفي مباشرة قصر الأمير يوسف كمال أو «البرنس» كما اشتهر. كان البرنس أغنى أفراد الأسرة العلوية، كان شغوفًا بالجغرافيا والرحلات، هو من أسس أول مدرسة للفنون الجميلة في مصر، وخصص أكثر من ١٠٠ فدان وقفًا لينفق عليها. وقد تخرج من دفعتها الأولى محمود مختار صاحب تمثال نهضة مصر. فتح يوسف كمال المدرسة للدراسة مجانًا من دون أي قيد، وكان يرسل الطلبة لاستكمال دراستهم

في أوروبا على نفقته الخاصة أيضًا. قُدرت ثروته بعشرة ملايين جنيه، وكان قصره في نجع حمادي يقع ضمن ١٨ ألف فدان هي أملاكه في النجع. لكن الأمير لم يكن أوفر حظًّا منا الآن، فبعد أن صدر مرسوم ملكي بتوليه حكم مصر بعد ابن عمه فؤاد، تمكن الملك فؤاد من استخراج مرسوم آخر بتوريث العرش، فكان فاروق الطفل بديلًا عن مؤسس مدرسة الفنون الجميلة وجمعية محبي الفنون الجميلة وثالث رئيس لجامعة القاهرة. ولما قامت الثورة اكتفى البرنس بالسفر إلى أوروبا ليموت فيها عام ١٩٦٩. منذ عام اكتشفت سرقة ٣٠٠ قطعة أثرية من قصر البرنس في النجع بعد أن طالت المكان يد الإهمال. كان من المفترض أن يتم تجهيز القصر ليصبح متحفًا شاهدًا على تاريخ مصر وتاريخ المكان، إلا أن الوزارة، بدلًا من استعادة المسروقات وتأمين المكان، جمعت ما تبقى من آثار داخل القصر ووضعتها في مخازن في مدينة أخرى داخل قنا.

البرنس يوسف. من المؤكد أن كل يوسف برنس. هكذا أكد الشاهد خلفي أن يوسف ولدي رحل لأنه أدرك ما عجزت أنا عن إدراكه وقتها. كنت بحاجة لهذه الرحلة كي أشاهد ما شاهده يوسف وهو يجلس على سرير داخل

العناية المركزة في مستشفى حكومي في قلب القاهرة. فضَّل أن يرحل هو أيضًا كما رحل البرنس يوسف كمال ليُدفن في النمسا.

عدت أدراجي إلى مقهى مجاور بعد أن رن الهاتف. جاء صوت مضيفتي، الدكتورة بكلية الإعلام جامعة جنوب الوادي، يخبرني أن السيارة التي ستنقلنا من نجع حمادي إلى مدينة قنا تنتظرنا. بعد ساعة ونصف تقريبًا كنا في قنا. ذهبت إلى الفندق مباشرة، صعدت إلى غرفتي في الدور الرابع، أغلقت الباب خلفي، نزعت عني ملابسي بصعوبة، استلقيت على السرير، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أستيقظ في الصباح وقلبي ينتفض وسؤال يلح على ذهني: أين أنا؟

* * *

طلبت من مضيفتي تسهيل زيارتي إلى مستشفى حكومي أو وحدة صحية في إحدى القرى، لكنها لم تستوعب طلبي، الجميع لا يريد أن يقبل فكرة أنني خرجت من منزلي في القاهرة بحثًا عن حكايات أُضمِّنها كتابًا يحمل اسم ولدي المتوفَّى. تزداد الدهشة حين أخبرهم أنه توفِّي بعد ميلاده بأربعة وخمسين يومًا فقط.

كنت أجد في بعض النظرات التي أرسلَتها مضيفتي محاولة

لتلمس صحتي العقلية: أهو خلل أم مسٌّ من الشيطان؟ مكالمة هاتفية تلقتها ونحن نتحدث غيرت معالم وجهها، أخبرتني أن قريبتها أصابتها جلطة في القلب بالأمس. علمت منها أنه يمكن تجنب آثار الجلطة في الساعات الأولى عن طريق حقن المريض بدواء معين لا يتجاوز سعره ستة جنيهات، لكن الغريب في المسألة أنهم بحثوا في قنا بأكملها ولم يجدوه، واضطروا للتواصل مع أصدقاء في محافظات الأقصر وسوهاج وأسيوط ربما توصل أحدهم للدواء. سألتها إن كانوا قد وجدوا الدواء لكنها أجابت بالنفي، وأخبرتني أن قريبتها ربما تموت لأنهم عجزوا عن الوصول لدواء ثمنه بضعة جنيهات في محافظة قنا التي كانت في يوم من الأيام تضم قصر أمير علوي وأحد أغنى الأغنياء في العالم.

* * *

اكتفيت بالسير في شوارع قنا ليومين أشاهد الناس والدكاكين والطرقات، ثم أعود إلى الفندق وأستلقي على السرير. أبعد عن القاهرة الآن مسافة ٦٥٠ كيلومترًا، تسع ساعات بالسيارة. للحظة ضربني اليأس ووددت لو عدت إلى منزلي، إلى زوجتي، لكنني كلما هممت بالتفكير في قطع الرحلة والعودة تذكرت الساعات التسع، تذكرت

الستمائة والخمسين كيلومترًا، بل تذكرت يوسف الذي تخليت عنه في حياته، أخشى أن أخذله مرَّة أخرى في مماته.

* * *

الساعة السابعة صباحًا، اليوم السادس في الرحلة، الرابع عشر من شهر فبراير، سائق الميكروباص أشار إلى موقف سيارات أسوان أمامي. أسير قرابة العشر دقائق حتى أصل إلى المكان، أسمع السائق من بعيد ينادي:

ـ كوم أمبو، كوم أمبو.

أقترب من الميكروباص فلا أجد إلا رجلًا في العقد الخامس من عمره. أصعد إلى السيارة وأنظر في الساعة، السابعة والنصف. أخبرني مضيفي في أسوان أن موعد عمله في مستشفى الطوارئ في السادسة مساء، وأنني يجب أن أحضر إلى قريته في مدينة كوم أمبو قبل ذلك حتى ننطلق معًا إلى مقر عمله. قال إنها فرصة لقضاء ليلة في مستشفى طوارئ مدينة دراو المركزي. عبارة «مستشفى طوارئ» أوحت لي بأنه مبنى كبير، أدركت حينها أنني وجدت أخيرًا ضالتي.

الساعة الآن الثامنة والنصف ولا زلت في الميكروباص

بصحبة الرجل ذي العقد الخامس، حتى الآن لم يحضر أحد. تركت السيارة وتوجهت إلى كشك في مقدمة موقف السيارات واشتريت زجاجة مياه وبعض المخبوزات. عدت أدراجي وأخذت أسير حول السيارة جيئة وذهابًا في محاولة لقتل الوقت. الساعة الآن التاسعة والنصف، ولم يحضر إلا ثلاثة رجال. مضيفي في أسوان هاتفني مُبديًا دهشته، مرت ساعتان وأنا في انتظار اكتمال عدد الركاب. الساعة الآن العاشرة والنصف، لا زلنا نحتاج إلى خمسة ركاب حتى يكتمل العدد. تركت السيارة مرَّة أخرى وتجولت في المكان. حديث دار بين سائقين في الموقف عرفت من خلاله سبب التأخير. كانت المسألة في بادئ الأمر مقتصرة على سيارة تنطلق مباشرة من الموقف إلى أسوان، لكن المسافة من أسوان إلى كوم أمبو أو منها إلى إدفو كبيرة، المسافات بين المراكز والمدن داخل محافظة أسوان أقرب إلى السفر بين محافظة وأخرى في محافظات وجه بحري، لذلك حدث أن تم تخصيص سيارة تنطلق مباشرة إلى كوم أمبو وأخرى إلى إدفو وثالثة إلى أسوان المدينة، قد يضطر السائق لترك سيارته في الموقف بضعة أيام حتى يحل دوره، يأتي لتسجيل الاسم في دفتر ومن ثَمَّ ينطلق حيث يريد، وحين يأتي موعده ينتظر بضع ساعات حتى تكتمل السيارة. كلما اقتربت أكثر من الجنوب أصبحت وسائل الانتقال

مسألة معجزة بالفعل. كنت أظن أن الوضع في القاهرة صعب لأن الانتقال في بعض الأحيان يستلزم ساعة كاملة بسبب الزحام، حتى إذا حضرت إلى الجنوب شاهدت سيارات النقل تختفي بعد السادسة مساء، وشاهدت سيارات تقف لساعات في انتظار اكتمال عدد الركاب، وشاهدت سائقي ميكروباص ينتظرون لأيام حتى يحل دورهم في نقل الركاب داخل الموقف.

الساعة الآن الثانية عشرة ظهرًا، اكتمل العدد وانطلقت السيارة. في بداية رحلتي كان يصيبني الإعياء فقط من استخدام وسائل الانتقال بين المدن والقرى والمحافظات، أما الآن فقد أصبحت متمرسًا على قواعد التنقل.

بعد ساعة تقريبًا كنا قد تجاوزنا مدينة الأقصر. توقفت السيارة على الطريق فجأة ثم عادت إلى الخلف لتنتقل إلى الحارة الأخرى من الطريق، جميع الركاب بدأوا تجهيز حاجياتهم لترك السيارة، وأنا لا أفهم شيئًا، إذ لا زال أمامنا ثلاث ساعات كاملة قبل أن نصل إلى كوم أمبو. نظرت خلفي فرأيت سيارة أخرى تقترب ويهبط منها ركابها، تركت السيارة فوجدت عملية تبديل للركاب، سألت الرجل الذي يجلس بجواري عما يحدث، قال إن سائق سيارتنا من محافظة قنا، لو ذهب بنا إلى أسوان فسيعود

كل هذه المسافة إلى منزله من دون ركاب، أو عليه أن ينتظر أيامًا داخل أسوان حتى يحل دوره في نقل الركاب، والعكس مع السائق الآخر، فهو من محافظة أسوان، وأضاف أن عملية التبديل تلك عرف بين السائقين.

تمت عملية التبديل، وانطلقت بنا السيارة الجديدة إلى مدينة كوم أمبو. بعد أن تجاوزنا مدينة إسنا تلقيت مكالمة من صديق تحدثنا فيها عن عملي في الصحافة. يبدو أن الجالس بجواري تنبه لكلمة «صحفي». بعد أن أنهيت المكالمة أخرج من حافظة أوراق بحوزته صورًا من تقارير طبية وأشعة وطلب مني قراءتها. أدركت من التقارير أنه مجند أمن مركزي منذ عام كامل، وأنه مصاب بربو مزمن، وأن انضمامه إلى الجيش مسألة خاطئة من البداية. علمت من المجند أنه يحاول منذ عام الحصول على إعفاء من الخدمة بسبب ظروفه الصحية، لكنه عجز عن ذلك. قرأت في صورة شكوى قدم نسختها الأصلية إلى مجلس الوزراء أنه ذهب إلى أحد المستشفيات العسكرية للكشف والحصول على تقرير معتمد بحالته، لكن الأطباء في المكان تجاهلوه وعاملوه بما لا يليق بإنسان. صمت المجند لدقيقة ثم قال:

ـ تقدر تساعدني يا بيه؟ وصلني بأي حد الله يباركلك!

وددت لو أخبره أنني عجزت عن مساعدة ولدي فكيف

أساعده، فكرت أن أسأله عن تفاصيل حكايته لأسطرها في كتابي، لكنني شعرت أن حالة المجند لا تسمح بذلك، الرجل يبحث عن مجرد أمل يتعلق به، وليس بحاجة إلى صفحة تكتب عنه في كتاب. حدثت نفسي أن ذلك المجند ميت آخر أشاهده في هذه الرحلة.

تجاوزنا مدينة إدفو، ثم قبل مدينة كوم أمبو بعشرين كيلومترًا تقريبًا وقفت السيارة وقال السائق:

ـ الشبيكة يا أبو عمو.

تركت السيارة لأجد نفسي في قلب الجبل، قرية «الشبيكة» مدينة كوم أمبو محافظة أسوان. استقبلني مضيفي على مشارف قرية «الشبيكة»، وصحبني إلى منزله. جميع البيوت من طابق واحد، تملك بعض الغرف سقفًا يغطيها، أما بقية المنزل فمكشوف للسماء. أقيمت جميع البيوت من الطين والحجارة الجبلية، بعضها على مشارف الجبل وأخرى بنيت في قلب الجبل بالفعل. جلست لدقائق داخل منزل صديقي ثم طلبت زيارة الوحدة الصحية في القرية. خرجت ضحكة عفوية من مضيفي وقال:

ـ ما تشغلش بالك يا أبو عمو، مش هتلاقي فيها حد.

خرجنا من المنزل ومشينا مسافة مائتَي متر إلى الوحدة

الصحية بالشبيكة. وقفت عند الباب لدقيقة أتأمل المبنى الذي يغطي جدرانه رمل الصحراء. نادينا:

ـ يا جماعة يا اللي هنا!

لم يرد أحد. تكرر النداء، فلم يكسر صمت المكان أي صوت. شاهدت غرف المكان مغلقة بالأقفال، باب الوحدة فقط كان مفتوحًا. نظرت إلى مضيفي أسأله:

ـ أين الناس؟!

ضحك ساخرًا قبل أن يجيب:

ـ ما قلتلك يا أبو عمو، الدكتور ما بيجيش الوحدة!

سألت عن السبب، فقال:

ـ الدكتور المسؤول ممكن يكون من محافظة بعيدة، إيه اللي هيخليه يدب المشوار كل يوم بالساعات لوحدة صحية في قلب الجبل؟

أدركت المشكلة نفسها في معظم الأماكن التي ذهبت إليها: تكليف الأطباء بعد تخرجهم من الجامعة يأتيهم في الغالب في أماكن بعيدة جدًّا عن أماكن سكنهم، المسألة التي تجعلهم يفضلون الغياب على الحضور.

أعلم أن البعض قد يقول إن الوحدات الصحية ومراكز

صحة الأسرة ليست مستشفيات بالمعنى، وأنها مرحلة لعلاج الحالات البسيطة، أو إحالة المريض إلى المستشفى المركزي بالمدينة. لكن ذلك ليس معناه أن نرسل طبيبًا متدربًا في قرى لا يملك أهلها كلفة الانتقال من قُراهم، ولن يكون سبيل أمامهم سوى الوحدات الصحية، وليس معناه أيضًا أن يترك الأطباء هذه الوحدات خاوية على عروشها.

خرجنا من الوحدة الصحية نقف على الطريق في اتجاه كوم أمبو. حان موعد الذهاب إلى مستشفى طوارئ دراو المركزي. على الطريق، قال مضيفي:

ـ عارف يا أبو عمو، بعد الساعة ٧ عربيات النقل بتختفي، لا حد بيعرف يدخل ولا يخرج من المكان، يعني لو حد تعب يفضل بتعبه لحد ما يطلع عليه نهار، وهوَّ وحظه، يمكن ما يطلعش عليه نهار من أساسه!

* * *

ولدي يوسف..

بعد التحية.

أرسل لك عتابًا يا ولدي: لم تعد تحدثني مثلما كنت تفعل أيام حياتك! أنتظر منك ردًّا على عتابي!

* * *

قضيت نصف ساعة داخل صندوق حديدي في القسم الخلفي من سيارة نقل. قُسم الصندوق إلى كنبتين متقابلتين يجلس على كل منهما ستة أشخاص، في منتصف سقف الصندوق علق مسند حديدي نتكئ عليه حتى لا نسقط أثناء انطلاق السيارة. وصلنا إلى موقف ميكروباصات أجرة، ركبنا فيه سيارة نقل أخرى، ربع ساعة تقريبًا وكنا أمام مستشفى طوارئ دراو المركزي، مبنى متهالك ليس بحال أحسن من الوحدات الصحية التي مررت بها. تظهر بعض أعمال التجديد في المستشفى، لكن الطوارئ في الجزء القديم: أبواب متهالكة، جدران متسخة إلى حد أكاد أشم معه رائحة أوجاع المرضى. بعد أن تجاوزنا بهو المستشفى دلفنا إلى غرفة على اليسار، بابها مثبت بمسمار حديدي منذ أن تعطل قفل الباب. على يمين الغرفة دورة مياه عرفتها من رائحة كريهة ملأت المكان. صوت قطرات الماء المتسربة من حنفية تكاسل الموظفون عن إصلاحها لفت انتباهي، تحول الانتباه إلى إزعاج أرَّقني في منتصف الليل، بعد أن صمت كل شيء وظل صوت قطرات الماء بعد ارتطامها بالأرض هو المستيقظ.

جلست لمدة أراقب المكان. كنت أنتظر أن يعترض أي مسؤول داخل مستشفى الطوارئ على استضافة شخص

ليس بمريض ليقضي ليلته داخل إحدى الغرف. عبَّرت عن مخاوفي لمضيفي، لكنه ابتسم ساخرًا كعادته وقال:

ـ يا أبو عمو إنت ضيفي!

الثقة التي ملأت حروف كلماته جعلتني أتفرغ للبحث عما جئت من أجله. طلبت منه أن يصحبني للكشف في عيادات الطوارئ داخل المستشفى. أشعر أنني أصبت بشيء في المعدة بعد انتقالي كل هذه الأيام بين المحافظات في جو عاصف. أخذني مضيفي إلى غرفة في مقدمة المستشفى قال إنها عيادة الطوارئ. يبدو أن الأمل خاب وأن كلمة مستشفى خدعتني، هي اسم ضخم يحمل إمكانات وحدة صحية. فتحنا باب العيادة فلم نجد الطبيب. حدثت نفسي سرًّا أن «مستشفى الطوارئ» هو أيضًا اسم على غير مسمى بغياب الطبيب المعالج، إلا أن مضيفي أخبرني أنه ربما ذهب إلى دورة المياه. عُدنا بعد نصف ساعة فوجدناه: شابًّا في العقد الثالث من عمره. سألني عن أعراض مرضي. كنت أنتظر أن يُخرج سماعته أو أن يحاول على الأقل استخدام جهاز الضغط أو طلب تحاليل معينة، لكنه اكتفى بما أخبرته من دون أن يلمسني نهائيًّا أو يُجري أي كشف ظاهري على الأقل، ثم سطر دواء في روشتة وطلب مني الحضور في الصباح للكشف

في عيادة الجراحة. عدنا إلى الغرفة مرَّة أخرى، وأبديت لمضيفي دهشتي من الطبيب الذي لم يكلف نفسه عناء الكشف، لكنه لم يرد، كأنه اندهش من اندهاشي على مسألة يراها عادة وليست بجديدة.

في منتصف الليل، سمعت صوت نساء يصرخن في الخارج، ورأيت الممرض ينادي على مضيفي لإجراء أشعة على حالة طفلة أصيبت في حادث. خرجت خلفه لأرى بضعة رجال ونساء يهرعون إلى غرفة الأشعة وقد تلطخ جلباب أحدهم بدماء الطفلة. عاد مضيفي إلى الغرفة وكان سؤالي الأول عن حال الطفلة:

ـ البنت كويسة؟ يا ترى الإصابة جامدة؟ طمني!

ـ أنا عملت الأشعة وبعتها للدكتور. ما اعرفش إيه اللي حصل بعد كده.

كنت أود لو أخرج لأهل الفتاة لأعرف ما الذي حدث، هذه مرَّة أخرى أضيع حكاية قد تجد لها سبيلًا بجوار حكاية يوسف، لكن كالعادة منعتني نفسي عن ذلك، أشعر بحال الأب الآن، هو يريد فقط أن يسمع كلمة واحدة ممن يجرؤ على محادثته في تلك اللحظة: «بنتك بخير يا أبو عمو».

عدت إلى غرفتي. دخل فني التحاليل وجلس معنا، تمنى لو حدث تغير للأفضل، لكنه عاد لصمته كأن لا جديد يُنتظر. أكثر ما أدهشني في رحلتي ليس تدني المنظومة الصحية، بل تقبُّل الناس لهذا التدني، وعدم تقبُّلهم لأي محاولة في الإصلاح، حالة من الاستكانة أقرب للتخاذُل، لكنه تخاذُل أصبح في عُرف العادة، لا يبذلون مجهودًا فيه، يتعاملون مع المسألة بمنطق العادة، لا يمر على أذنيك سوى كلمات مثل: «الله جاب الله خد الله عليه العوض»، «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»، «راضي بقضاء الله»، «إنت هتكفر يا حاج، ده قدر ومكتوب»، «ربنا عايز كده».

لكن بين هذه العبارات لم أسمع عبارة واحدة تتحدث عن الأخذ بالأسباب، عن السعي، عن النأي بالنفس عن التهلكة. الله لم يطلب من الإنسان أن يتهاون في حق نفسه! الله لم يطلب من الإنسان أن يترك روحه تنسحب تحت وطأة مرض أهمل الطبيب في علاجه، أو أهملت الدولة في توفير دوائه أو تأسيس مستشفيات لاحتوائه! الله لم يخلق العقل للإنسان حتى يطأطئ رأسه ساعة الضر، بل خلق العقل ليجد الإنسان مخرجًا من ضره!

دار حديث بين مضيفي فني الأشعة، وزميله فني التحاليل، حول ما أصاب الفتاة. كان الحديث يذهب ناحية إصابة

في المخ. سألت إن كان المستشفى مجهزًا لمثل هذه الحالات فردًا بالنفي.

تحتاج الحالة الخطرة إلى ساعة بالسيارة لتنقل من دراو إلى مدينة أسوان، لكن من الأفضل أن تذهب إلى أسيوط، هي الأفضل بين كل مستشفيات الصعيد من حيث الاستعدادات الطبية، ست ساعات من أسوان إلى أسيوط بالسيارة لننقذ مريضًا أصابه حادث في الدماغ، من المؤكد أنه لن يصل حيًّا، ومن المؤكد أيضًا أن المسألة أعمق من البحث عن طبيب غاب عن الوحدة الصحية. يبدو أن وزارة الصحة بأكملها غابت عن صعيد مصر.

نظر إليَّ مضيفي كأنه يتلمس يأسي. قال:

ـ شكلك ما لقيتش الحكاية اللي انت عاوزها.

أسندت رأسي إلى الحائط خلفي، ثنيت قدميَّ، وذراعاي تستندان عليهما، ونظرت إلى سقف الغرفة. مرت دقائق والصمت يضرب رأسي، تمددت على السرير وسحبت غطائي وأغلقت عينيَّ، أسلمت روحي للنوم، لم أجد منفعة من الاستيقاظ ليلًا داخل مستشفى الطوارئ، أصبحت أنا أيضًا أتعامل مع المسألة بمنطق العادة، لا جديد تحت الشمس.

* * *

ولدي يوسف..

بعد التحية.

أرسل إليك يا ولدي خطابي هذا، وقد اقتربت رحلتي من نهايتها. في البداية سطرت في مفكرتي كل محافظات مصر، وبدأت في مهاتفة كل الذين أعرفهم في هذه المحافظات. أردت أن أخلق رحلة شبيهة بتلك التي كنا نراها معًا على أبواب مستشفى أبو الريش. هل تذكر ذلك الرجل من مدينة المنصورة؟ هل تذكر السيدة من طنطا؟ هل تذكر السيدة الأخرى التي صرخت فجأة لأن أحدهم سرق حافظة نقودها؟ من المؤكد أن النقود المسروقة كانت قليلة، لا تتجاوز بضع مئات من الجنيهات، لكن المؤكد أيضًا أنها كانت ستُصرف على دواء طفلتها! هل تذكر ذلك يا ولدي؟

أنا أذكر، فبعد وفاتك بشهور معدودة قررت أن أداوي نفسي بالسعي خلف أوجاع هؤلاء. تخيلت نفسي والد أحدهم في محافظة بعيدة وقد دق المرض باب المولود فجأة، تخيلت نفسي أهرع من بيتي بالملابس التي أرتديها من دون إعداد مستلزمات للسفر، أجري في الشارع وأستقل أول وسيلة انتقال أراها لأقف أمام أول مستشفى، في طريقي أخبرهم أن ولدي مريض، طفلتي

مريضة. خرجت يا ولدي من منزلي لا أحمل في يدي سوى جهاز الكمبيوتر، أسجل عليه رحلتي، وكلما نزلت في محافظة تذكرتك، وكلما رأيت حكايات الناس في القرى اعتقدت أنني أسعى في طريق التخلص من وجعي. لكن الألم يزيد، ورسائلي إليك لا تتوقف، وقد مر عام على رحيلك. شيء واحد تغير في هذه الرحلة، هو أنك لم تعد ترد على رسائلي مثلما كنت تفعل في حياتك.

* * *

ساعة أخرى من الصمت قضيتها في الميكروباص ونحن في الطريق من مستشفى دراو المركزي إلى مدينة أسوان. اكتفيت بتأمل الجبل وهو يضم بين جنباته حيوات عاشت لآلاف السنين لا تعرف غير الصحراء، بيوت الطين والحجارة، دواء الأعشاب، كمادات المياه عند ارتفاع الحرارة، وسائل العلاج تلك التي تناسب أبسط ظروف الحياة التي يعيشون فيها.

عندما نزلت من الميكروباص، سألت مضيفي إن كانت معابد أسوان الفرعونية قريبة من المدينة فنذهب لمشاهدتها، في محاولة لكسر إيقاع الأيام الماضية، وإكمال الرحلة بإقبال أكبر. ضحك قائلًا:

ـ ساعتين يا دوب ونوصل، مش كتير!

صعوبة التنقل في الصعيد أظهرت كثيرًا من إهمال الأنظمة المتعاقبة في تطويره، وفسرت أيضًا لماذا سجل الصعيد تاريخًا من المقاومة ضد الغزاة، الذين عجز معظمهم عن تجاوزه. من المؤكد أن من قال «مصر مقبرة الغزاة» كان يقصد صعيدها. رحل الغازي بالفعل، وظل الصعيد مقبرة، لكن لسكانه.

سألني مضيفي أي المستشفيات أود زيارتها، فأخبرته أنني ذاهب إلى مؤسسة مجدي يعقوب. قال إن هناك مؤسستين لمجدي يعقوب في أسوان، ولم أفهم مقصده، إذ أعلم أنها واحدة. اتصل مضيفي بصديق يعمل في المستشفى، أخبره أن المراد هو مؤسسة مجدي يعقوب بجوار مستشفى أسوان التعليمي. انتقلت عن طريق ميكروباص آخر إلى المستشفى. عند وصولي وجدت بالضبط المشهد نفسه الذي نراه في المستشفيات الحكومية في القاهرة، وفي أقصى اليمين اقتُطع جزء من مستشفى أسوان التعليمي ليصبح مؤسسة مجدي يعقوب للقلب.

البناء مختلف تمامًا، بين بناء حديث وآخر أشبه بما رأيته في مستشفى أبو الريش وقصر العيني القديم في القاهرة، مع أن المؤسسة في المبنى الحكومي نفسه. على الباب

استوقفني فرد أمن إداري، سألني عن وجهتي. أخبرته أن هناك موعدًا مع مدير المستشفى، فصحبني حتى مكتب الاستقبال، حيث استقبلتني سكرتارية المستشفى. سألَت السؤال نفسه، فأخبرتها أنني على موعد مع المدير المسؤول. أجرت مكالمة هاتفية داخلية بسكرتارية المدير، ثم طلبت مني الانتظار قليلًا. صحبني موظف الأمن إلى بهو المستشفى لأجد مكانًا معدًّا لاستقبال الزوار. أتعجب من كل ما أراه. أعلم أن المؤسسة تقدم العلاج مجانًا للجميع، وأن مبانيها اقتُطعت من مبنى مستشفى أسوان التعليمي. كنت أتوقع أن أشاهد مستشفى آخر مثل الذي أشاهده منذ سنوات، لكنني وجدت مستشفى أقرب إلى المستشفيات الخاصة الحديثة، والفارق أنه يقدم العلاج مجانًا.

استقبلني المدير بعد مدة طالت بسبب انشغاله بالمرور على المستشفى. أخبرته أنني أود مقابلة مرضى داخل المستشفى وإجراء حديث صحفي من أجل كتاب أعده عن ولدي المتوفَّى. أجابني أن وجود الصحافة في الداخل ممنوع، ولكن مراعاةً للرحلة التي مررت بها سيسمح بذلك. صحبتني السكرتيرة المسؤولة داخل المستشفى. كنت أتجول في المكان، أتأمل النظافة غير المعهودة

في المستشفيات المصرية، وأندهش من اندهاشي من نظافة مستشفى، فمن المفترض أن تكون النظافة في المستشفيات مسألة بديهية. تركتني السكرتيرة أمام غرف الأطفال، بعد أن استأذنت ذويهم في إجراء لقاء معي. دخلت إلى الغرفة الأولى، وجدت طفلًا في العاشرة، والده حارس عقار في الغردقة، محافظة البحر الأحمر. حدثني الأب عن مرض في القلب ألمَّ بولده منذ مولده، لكنهم لم يكتشفوا حقيقة المسألة في البداية. قال الأب إنه زار مستشفيات عدة في البحر الأحمر، حكومية وخاصة، وعيادات أطباء، كانوا يشخصون حالة طفله بأمراض مختلفة، ويسطرون في الأوراق أدوية كثيرة، ويطلبون تحاليل وأشعة، لكن أحدًا منهم لم ينتبه لمعضلة في قلب ولده. يحكي الأب في دهشة عن عجز كل هؤلاء الأطباء خلال سنوات عن اكتشاف حال ولده، يقول برضا إنه صرف كل ما يملك تقريبًا، المال ليس بذات أهمية، المهم أن يُشفى ولده من ذلك المرض العجيب الذي لم يعرفه أحد بعد.

يستكمل الوالد أن أحد الأطباء في نهاية الرحلة قال إنه ربما يكون هناك مرض في قلب ولده، وطلب منه الحضور إلى مستشفى مجدي يعقوب، مؤكدًا أنه المستشفى الأنسب

الذي سيحدد المرض ويعالجه، وأن الأب لن يتكلف شيئًا.

بعد عشر سنوات من السعي بين المستشفيات، حضر الأب إلى مؤسسة مجدي يعقوب. بعد إجراء الكشف طلبوا منه الحضور مجددًا بعد ١٥ يومًا. حضر في الموعد المحدد لإجراء كشف آخر، وفي تلك المرَّة طلبوا منه أن ينتظر في بيته حتى تأتيه مكالمة من المستشفى بالحضور. قال والد الطفل إن هناك طابور انتظار، كثيرون يقفون بقلوبهم المريضة ينتظرون الإذن بالمرور، وإن المستشفى يستقبل الحالات بالترتيب حسب خطورة كل حالة. سألته أين كان يسكن فترة وجوده في أسوان لمتابعة حالة ولده، أجاب أن المؤسسة توفر سكنًا لائقًا لمن لا يملكون القدرة على تدبيره بأنفسهم.

نظرت إلى الطفل الراقد على السرير وأرسلت له ابتسامة أدركت سخافتها سريعًا حين طلبت منه أن تجمعنا صورة بالكاميرا الخاصة بي، إلا أن الطفل رفض بشدة ولسان حاله يخبرني بسنوات عشر من الوجع، وأنه لن يأمن مرضه حتى يخرج من المستشفى، بل وحتى يتأكد أنه لن يعود إليه مرَّة ثانية.

انتقلت إلى غرفة أخرى لأجد سيدة في العقد الخامس

من عمرها تحمل على يدها طفلة رضيعة يبدو أنها في الشهور الأولى. يوحي حديث السيدة وهيئتها بأنها من عائلة ميسورة الحال. قالت إنها من محافظة الإسكندرية، وُلِدت طفلتها بمرض في القلب، واحتاجت لتدخل جراحي سريع في أيامها الأولى. تتوقف الأم عن الحديث لفترة لتهدهد طفلتها وهي تبتسم ابتسامة من لا يصدق أن الطفلة لا زالت بيننا تحيا. عادت لتكمل حديثها، فقالت إن زوجها ضابط كبير في وزارة الداخلية، وإنها من عائلة غنية جدًّا، لكن منصب زوجها وأموال عائلتها لم يسعفا الطفلة لمواجهة أوجاع قلبها. ومحاولات الأم للانتقال بالطفلة إلى دولة أجنبية أخرى باءت بالفشل، فإجراءات السفر تحتاج إلى وقت طويل، لكن قلب الطفلة لا ينتظر كل ذلك. كان السبيل الوحيد هو الحضور إلى مؤسسة مجدي يعقوب. حاول زوجها في البداية دفع تكلفة علاج الطفلة، اعتقادًا منه أن ذلك سيضمن اهتمام المستشفى بطفلته، إلا أن إلحاحه في دفع المال قوبل بالرفض. السبيل الوحيد هو التبرع في مقر المؤسسة بالقاهرة وحساباتها المصرفية، بعيدًا عن المستشفى، فهنا الجميع يعالَج مجانًا.

خرجت من الغرفة وطلبت من السكرتيرة أن أشاهد غرف

العناية المركزة. صحبتني إلى المكان المطلوب. بالداخل قابلت الطبيب المسؤول، فطرح عليَّ السؤال نفسه: لماذا كل هذه الرحلة؟ أخبرته أنني أُعد كتابًا عن المنظومة الصحية في مصر. أصبحت أثق أن لا أحد سيتفهم أنني قطعت كل هذه الرحلة لأسطر كتابًا عن ولدي المتوفَّى في يومه الرابع والخمسين في الدنيا.

سألت الطبيب إن كان العلاج يُقدَّم بالمساواة للجميع، فحكى لي قصة تؤكد ما قالته زوجة الضابط من قبل. قال إنه منذ أيام، كان ابن حارس عقار فقير يرقد في السرير المجاور لابن شخص يعمل في جهة سيادية مهمة. قُدم للاثنين علاج متساوٍ، ولم يعرف الأطباء حقيقة الطفلين إلا بعد تركهما لغرفة العناية المركزة.

عدت أدراجي إلى المدير المسؤول لأشكره على السماح بهذه الجولة، وأخبرته عن الفكرة التي خطرت لي خلال الزيارة: سأهب نصف أرباح «رحلة يوسف» لمستشفى مجدي يعقوب. رحب المدير بالفكرة، وطلب إرسال نُسخ من الكتاب فور صدوره. تركت المؤسسة وفي الخارج وقفت لما يقرب الساعة في المنطقة الفاصلة بين مستشفى أسوان التعليمي ومؤسسة مجدي يعقوب. فكرت أن أزور المستشفى التعليمي لأعقد المقارنة، لكني عدلت

عن الفكرة، فالمقارنة عُقدت بالفعل في تلك الفترة التي قضيتها مع يوسف داخل مستشفى أبو الريش للأطفال في القاهرة.

* * *

حين عدت إلى القاهرة وبدأت في كتابة رحلتي إلى أسوان، بحثت في الإنترنت عن «مؤسسة مجدي يعقوب». لم تدهشني النتائج لأن ذلك هو المتوقع: أول ما قرأت هو اتهام من أطباء مستشفى أسوان التعليمي للمؤسسة بأنها تعالج قلب الأطفال باستخدام لحم الخنزير، وأن المؤسسة اقتطعت جزءًا من مستشفى أسوان من أملاك الحكومة، وأن تكلفة البناء شارك فيها مستشفى أسوان... آراء وردت في المقال، تسعى جميعها إلى الطعن في مؤسسة مجانية لعلاج الأطفال أبهرني ما شاهدته داخلها. لكن المقال لم يذكر ما يحدث داخل المؤسسات العلاجية الحكومية، هو فقط تفنن في هدم مؤسسة ناجحة بالفعل. تذكرت حينها ما أخبره مضيفي بأن هناك مَقرين لمؤسسة مجدي يعقوب، المؤسسة القائمة حصل عليها مجدي يعقوب كحق انتفاع لمدة ثلاثين عامًا فقط، لذلك هو يؤسس مقرًّا دائمًا من أموال التبرعات. كم أسعدني أن هذا الصرح سيكبر ويصبح له مبناه الخاص. لكن على الجانب الآخر كم أحزنني أن

هذا المبنى سوف يعود إلى وزارة الصحة المصرية بعد انتهاء عقد الانتفاع، ليتحول في النهاية لما آل إليه مصير مستشفى أبو الريش. وقد كان الأخير حديث الناس حين افتُتح منذ سنوات، هو أيضًا أنشئ بمنحة يابانية على أحدث المواصفات، لكنه يدار الآن بأيدٍ مصرية أصيلة، حولته إلى شيء أشبه بأسواق المناطق الشعبية وليس بمستشفى لعلاج الأطفال!

* * *

ولدي يوسف..

بعد التحية.

لم تكن وحدك يا ولدي من أصابه مكروه ولم يَسْلم. كنتَ أحسن حالًا لأنك رحلت. هناك من يقف على ناصية الدنيا، لا يجد الدواء الذي يُحْييه، ولم ينتهِ أجله بعد كي يرحل. يعيش هكذا، معلقًا بين الحياة والموت!

* * *

في موقف الميكروباص بمدينة أسوان، لم أقوَ على الانتظار حتى يكتمل عدد ركاب السيارة المتوجهة إلى الأقصر. طالت ساعات الانتظار، ولم أعد أملك طاقة مثل تلك التي صاحبتني حين بدأت الرحلة. جاءني صوت

المنادي يطلب راكبًا حتى تكتمل السيارة المتوجهة إلى محافظة قنا. المسافة من قنا إلى الأقصر تستغرق أقل من نصف ساعة، والانتقال عبر الطريق بينهما أفضل من الانتظار لساعات في مدينة أسوان.

اتصلت بصديقي المقيم في الأقصر أخبره بحضوري. صديقي طالب في كلية الفنون الجميلة في جامعة جنوب الوادي، وهو أيضًا عازف جيتار، انضم حديثًا لفرقة موسيقية قائدها بريطاني اختار أن يستقر مع زوجته في منطقة الكرنك بمحافظة الأقصر. لطالما تعجبت من ذلك البريطاني الذي ترك أوروبا وجاء ليعيش في بلد يهرب منه أبناؤه!

في التاسعة مساء وصلت إلى مشارف الأقصر. استخدمت سيارة أخرى متوجهة إلى مدينة الأقصر، واتصلت بصديقي فلم يرد. كررت المحاولة من دون جدوى. هاتفت صديقًا آخر في المكان فحضر بسيارته وصحبني من أمام محطة القطار إلى فندق. أرسلت حاجياتي القليلة إلى الغرفة، وهمست لصديقي أن يدلني على مكان يقدم خمورًا. طلب مني الانتظار في الفندق، غاب لدقائق ثم عاد يحمل المطلوب.

صديقي على علاقة قوية بأصحاب المكان، أضف إلى ذلك

أن الفنادق في الأقصر خاوية على عروشها، فلن يرفض أصحاب الفندق طلبًا للزائر الوحيد ربما في ذلك الوقت، لذلك فُتح لنا المطعم بعد أن أُغلقت أبوابه أمام الزبائن. أخرج صديقي زجاجة البيرة فأسلمت لها نفسي، أردت أن أفصل نفسي عن كل شيء وأي شيء، أردت أن أزيل تلك الصور التي تمر على مخيلتي ولا تريد أن تختفي، أتلاشى أمامها، ومع كل صورة تمر أمام مخيلتي أشرب من زجاجة البيرة، مرَّة، ومرات. لا أنا نسيت، ولا الصور تلاشت!

طال الحديث مع صديقي الأقصري، قال إن ذلك الفندق كان له أمجاده قبل سنوات، لكن مع غياب السياح أصبح على تلك الحال المزرية. أردت أن أخبره أن الحال للجميع سواء، نحن وهُم. بعد فترة من الشرب المستمر توقفت فجأة، أخبرته برغبتي في الصعود لغرفتي: لا أريد مزيدًا من الحديث، لا أريد مزيدًا من البيرة، ولا أريد مزيدًا من الصور، أريد فقط أن أسلم جسدي للنوم، ربما تلاشت الصور.

* * *

في الصباح توجهت إلى معبد الأقصر. في الطريق لا ترى سوى الفراغ، دكاكين مغلقة، وفنادق خاوية، وشوارع

صارت لا تلمسها أقدام السياح. المشهد الأكثر تكرارًا هو عربات الحنطور التي تلاحق أي غريب يسير على قدميه، وربما لاحقت أهل المكان أيضًا. أحدهم ظل يطاردني لعشر دقائق، يطلب أن أستخدم عربته مقابل بضعة جنيهات. أرفض. يلح. أزداد رفضًا. يزداد إلحاحًا. أنظر إلى توسله، فأتذكر حالتي وأنا أتوسل الحياة ألا يموت يوسف، أعرف هذه الحالة، صاحب الحنطور لا يكذب، يريد فقط أن يرى جنيهات غابت مع غياب الزوار.

على باب معبد الأقصر لا تملك إلا أن تحترم من شيدوه، تقف لدقائق تطول حتمًا أمام طريق الكباش، ثم تعود إلى داخل المعبد لتقف أمام بهو الأعمدة، التماثيل المُشيدة، النقوش التي تملأ الجدران، تندهش، وتندهش، ثم تسأل نفسك: كيف شيدنا بناء يعجز العالم حتى الآن عن فهم تفاصيله، ثم بعد آلاف السنين أصبحنا نعجز عن تحقيق أبسط سبل الحياة لأصحاب هذا البناء؟!

هاتفني صديقي عازف الجيتار، اعتذر عما حدث، وقال إنه كان في حفل يقدمه في بار يملكه صديقه البريطاني. اقترح أن يصحبني إلى الحفل في المرَّة القادمة.

في اليوم التالي انتقلت إلى البر الغربي متوجهًا إلى فندق سبق وحدثني عنه صاحبي عازف الجيتار، قال إنهم

سيقدمون حفلًا موسيقيًّا، وإن جميع الحضور أجانب. كنت وآخران المصريين الوحيدين وسط زحام ملأ ساحة خضراء أمام الفندق، البقية أجانب لكنهم ليسوا زوارًا، معظمهم مقيم بالفعل في الأقصر.

سألني صديقي إن كنت أرغب في عشاء خفيف فطلبت شيئًا واحدًا فقط:

ـ زجاجة نبيذ.

كانت أسرع زجاجة نبيذ أشربها منذ عرفت مذاقه. بعد أول كأس بدأ العزف، يقدم صديقي والفرقة حالة صوفية عن طريق ألحانهم وكلماتهم الخاصة، موسيقى يشعر بها الجميع، لا تحتاج إلى مترجم. مع الكأس الثانية بدأ الحضور في الاندماج مع عزف الفرقة، وقبل أن تنتهي الكأس قام بعض الجالسين ليرقصوا. مع الكأس الثالثة لم يبقَ جالسًا سواي وعدد قليل من الحضور. الجميع يرقص، يطرب. جميعهم غرباء، غالبيتهم تجاوز العقد السابع من العمر، نساء ورجال يتمايلون مع أنغام الموسيقى، من دون أن يتملكهم ذلك الخجل الذي شعرت به حين رغبت في الرقص أنا أيضًا. يتمازجون مع عزف صديقي الأقصري وصديقيه عازفَي البيانو والدف. رأيت يوسف في تلك اللحظة أمامي يكاد ينطق قائلًا:

«قم وارقص، تحرر من شكواك، تمازج مع النغم أنت أيضًا، في تلك البلدة التي نقطنها دونًا عن أهل الأرض لن ينتهي الألم، فاغتنم لحظاتك، من المؤكد ستساعدك على إكمال المسير». مع آخر كأس تشجعت، وقفت، لكن قدميَّ لم تحملاني، والرؤية أصبحت غير واضحة. تحاملت حتى وصلت إلى مكان الرقص، تهيأت، وحين قررت أن أحرر ذلك الجسد من بؤسه توقف العزف! انتهى الحفل، تأخرت في اتخاذ القرار.

أجريت عينيَّ بين الحضور فوجدتهم جميعًا يضحكون، يتبادلون أطراف الحديث، لا أعرف لغتهم، لكن إشارات الجسد تقول إنها كلمات إعجاب وسعادة. عدت إلى الكرسي وجلست، أسلمت نفسي للهواء الذي يضرب في شجر ساحة الفندق. نظرت إلى زجاجة النبيذ فوجدتها فارغة، مع أنني لا زلت أتذكر كل ما فات ولم أغب عن الحياة كما توقعت.

* * *

دعاني صديقي إلى بار يملكه عازف بيانو بريطاني وزوجته في منطقة الكرنك. ذهبنا معًا، المكان خاوٍ إلا من بضعة زوار، مثل كل أماكن الأقصر. توجهت إلى البار وأشرت إلى البارمان قائلًا:

ـ شوت تكيلا.

أنهيته، ثم طلبت آخر، أتبعته بزجاجة بيرة. مر الوقت ولا زالت صور الرحلة تراودني: ذكريات المستشفى، والدور الخامس، والصعيد، وسكان الجبال، وقبر يوسف.

ناديت البارمان، اقترب مني فهمست في أذنه:

ـ عاوز أسكر.

نظر البارمان إليَّ متعجبًا من أنني لم أسكر بعد كل ما شربت. أمسك ببضع زجاجات وأفرغ أجزاء منها في كأس كبيرة، ثم وضع أمامي الكوكتيل، وابتسم وقال:

ـ غيب يا معلم!

أربعة أيام قضيتها في الأقصر، بين معابدها صباحًا وخماراتها ليلًا. كنت أسعى هربًا من التجربة، أحاول تلمس أي مخرج من ذلك الوجع. لم أشعر يومًا بهذا الكم من الإهانة قدر الذي شعرته في رحلة علاج يوسف. أتذكر هرولتي وأنا أكاد أُقبل يد الجميع، أفعل كل شيء، وأي شيء، في مقابل أن يعيش. يتعجب الناس كيف أحب طفلًا عاش أربعة وخمسين يومًا فقط، وأتعجب أنا منهم كيف يطلبون مني ألا أحب ولدي، وحتى لو مات في بطن أمه، كان سيظل مع ذلك ولدي.

بكيتك كثيرًا يا يوسف! لماذا أشعر أنني قاتلك؟ بل أنا فعلًا كذلك! لم تعد تُسْكِرني الخمر، ولم تعد تدهشني الأحزان، ولم أعد أنا، ولم أعد أعرف إلى أين الطريق.

* * *

ولدي يوسف..

بعد التحية.

في اليوم التالي لوفاتك استيقظت في موعد عملي صباحًا وتوجهت إلى مقر الجريدة في ميدان الجيزة. كنت قد التحقت بذلك العمل قبل وفاتك بأيام، بعد عام كامل من البطالة. رآني رئيس التحرير يا ولدي أجلس إلى مكتبي فاندهش. تقدم إليَّ وقدم عزاءه في رحيلك. كان العمل هو الشيء الوحيد الذي يُعطِّل ولو قليلًا تَذكُّر ما حدث. لماذا يندهش الجميع من حكايتنا يا يوسف؟ لماذا لا يصدقها البعض؟ قال لي أحدهم منذ أيام إنه يشك في وجودك من الأساس، ظن أنها قصة اصطنعتها لنفسي. ليتك كنت قصة يا يوسف! ليتك لم تكن يومًا حقيقة! وليت وجعي بك ما كان! وليت رحلتي لم تكن! ليتني أنا أيضًا لم أكن!

بعد النهاية

أنهيت كتاب «رحلة يوسف» وسلمته لمحررتي وناشري، وجلست أنتظر الطبع، لكن شعورًا بأن شيئًا لم يكتمل انتابني. ليست تلك هي النهاية التي تناسب كتابك يا يوسف. على الرغم من صغر حجم الكتاب وعدد كلماته القليلة، إلا أنه استلزم عامًا كاملًا لكتابته. دائمًا كنت أقول لنفسي: يوسف يسطر كتابه ولست أنا. كنت أنتظر أن ترسل إليَّ عباراتك من عالمك، لأسطرها في كتاب يصدر في عالمي. لذلك لم أملك الحق في التلاعب بالنهاية. وقفت لأنني ظننت أنك رغبتها هكذا، وأسلمتُها للناشر وأسلمت نفسي للانتظار، لكن من المؤكد أن شيئًا لم يكتمل.

* * *

منشور لصديق على صفحة الفيس بوك كان نقطة البداية

للنهاية التي أبحث عنها. منذ سنوات تخليت عن فكرة الله المدبر للكون، لكن ما يحدث معك يا ولدي لا أجد له تفسيرًا. كتب الصديق يهاجم المستشفيات الخيرية مثل مجدي يعقوب و٥٧، متهمًا إياها أنها تمد يدها إلى جيوب الناس لسرقة تبرعاتهم، وأن الأَولى بهذه التبرعات هي المستشفيات الحكومية التي تقبل كل الحالات، على عكس المؤسسات الخاصة التي تحدد نوعية الحالات التي تقبلها. أرَّقني ما كتب الصديق فكتبت أرد عليه بمنشور أحكي فيه رحلتي مع مستشفى مجدي يعقوب، شارحًا أن المستشفيات الحكومية ليست بهذه الملائكية التي صورها الصديق. كل ذلك لا يهم. ما شغلني هو رسالة جاءتني من شخص ليس على قائمة الأصدقاء في صفحة الفيس بوك، كان يدعم رأيي ويطلب صداقتي، وقد كان. ومع ذلك الشخص كتبت ما أسميته «بعد النهاية»!

* * *

ولدي يوسف..

بعد التحية.

رحلتَ عن دنيانا يا ولدي قبل أن أخبرك بمسائل تتعلق بحياتي وأظن أنها في محيط اهتمامك، خصوصًا وأن مولدك ووفاتك تسببا في تحولات تتعلق بهذه المسائل.

ربما تكون هذه رسالتي الأخيرة، لكنها الأهم يا ولدي، لذلك ستكون أطول رسائلي إليك، وأرجو أن تقرأها حتى النهاية. أرسلها إليك في عالمك، وليتها تصل إليك.

نشأ والدك طفلًا ينتمي إلى جماعة إسلامية في منتصف التسعينيات من القرن العشرين. لا تتعجب من حكايات الخمر التي سطرتها في كتابك، نعم كنت شيخًا يومًا ما. أتذكر شيخي الأول وهو يطرق باب منزلنا فجرًا وأنا في العاشرة من عمري كي نذهب معًا إلى الصلاة. أحيانًا كنت أحاول الهرب منه وإكمال نومي، لكنه لم يكن يمل من تتبعي. لم يكن طريق الله سبيلًا اخترتُه بحرية. وُلِدت لأسرة مسلمة فكنت كذلك من دون اختيار. وحين اقترب العمر من مرحلة الوعي تلقفتني جماعة مسلمة فرضت على عقلي واقعها، فأصبحت في فلك جماعة أدافع معها عن الله الذي لم أختره من الأساس!

في رحلتي مع الله كنت ألهث بحثًا عنه، لكنني كنت أشعر أن ما أبحث عنه يجتهد في البعد عني. عامًا كاملًا قضيته في المسجد على أطراف قريتي، اعتزلت الناس، والجماعة، وكل شيء، واكتفيت بالقرآن، أنادي أحيانًا الله فلا يرد، أبكي أحيانًا أخرى فلا يستجيب. ضاق القلب وضعفت الحال. في لحظة قررت الابتعاد: الذي لا يرد

استجابة طلابه، من المؤكد أنه غير موجود، «الله» اسم اخترعه الناس، كيف أعبد إلهًا لا أسمعه، لا أراه، لا ألمس حقيقته بين يديَّ؟

رحلة أخرى امتدت لسنوات حاولت إقناع نفسي فيها أنه غير موجود، أنني تخلصت من توابع دينه، أنني لن أبكي بعد اليوم من فرط ذنبي. أصبحت أبحث عن كل ما ينفي حقيقته، أقرأ كثيرًا في نفي اللاهوت، أشاهد أفلامًا تثبت أن الكون خُلق من العدم، الانفجار العظيم، التطور، هناك إجابات علمية حاضرة لكل شيء: الفرق بين التصميم والخلق، البحث عن الحلقة المفقودة في تطور الإنسان، الحب كيمياء في المخ، الله نستشعره أيضًا بسبب كيمياء يفرزها المخ، لا جنة، لا حساب، لا قيامة، الدنيا هي فقط رحلتنا، ولا شيء اسمه بعث بعد الموت. أسأل نفسي بعد سنوات من البحث: إن كنت على يقين بعدم وجوده فلماذا أحتاج إلى عشر سنوات في البحث عن الدليل؟

عشر سنوات مرت، أجتهد فيها لأثبت أن الله غير موجود. لكن منذ عام فقط، حدث ما لم أكن أتوقعه. الصوت الذي كنت أبحث عنه بدأ يهمس في روحي، أسمعه بصعوبة، لكنه يراودني، يزداد حين أهرول بين أروقة المستشفى أحاول إنقاذك يا ولدي من الموت. ولدتَ بعيب خِلْقي

في الدماغ احتاج إلى تدخل جراحي في يومك الثالث عشر على الأرض. تبدلت حياتي في لحظة لتصبح مُسخَّرة فقط لأن تعيش، لا أريد سوى أن أسمع بكاءك، صرختك، مثل بقية الأطفال.

أربعة وخمسون يومًا مرت وقد توقف الوقت والحياة، وأصبحتُ لا أريد شيئًا سوى أن تعيش يا ولدي، لكنك رحلت في النهاية. لم أتقبل فكرة موتك يا ولدي، من المؤكد أنني أحلم، نعم هو حلم، سوف أستيقظ الآن، سأقوم فزِعًا أستعيذ من ذلك الكابوس الذي تملكني. لكن عامًا مر منذ وفاتك ولم أستيقظ، لم ينتهِ الكابوس بعد.

لم أقوَ على إكمال سيري في الحياة بعد وفاتك، شهور طالت وأنا أبكي فراقك، في لحظة توقفت لأسأل نفسي: كيف أبكي طفلًا عاش بين يدي أربعة وخمسين يومًا فقط؟ إن كان الحب كيمياء يفرزها المخ، فلن يفرز المخ كيمياءه إلا حين تستثيره مشاعر متبادلة. أين المشاعر في طفل ولد ومات ولم أسمع حتى صرخته وبكاءه؟ أين الكيمياء في طفل أحببته منذ اللحظة الأولى على الأرض، حتى قبل أن ينطق؟ اعتدلت في جلستي لتهاجمني صرخة أخرى: مات ولدي لأنه ولد بمشكلة في الدماغ، قال الطبيب إن الجسم يفرز مياهًا تحوط الدماغ لحمايته، وإن داخل

الدماغ صمامًا يصرف الزيادة منها حتى لا تضغط عليه، فيك يا ولدي لم يكن هذا الصمام الصغير جدًّا موجودًا، زادت المياه، ضغطت على مراكز المخ، توقفت الحياة، صمت تام. حاول الأطباء تركيب صمام بديل، لكنك رحلت قبل إجراء الجراحة.

ولدي الذي هو تطور لكائن نشأ في كوكب خُلق بالصدفة مات لأن ذرة صغيرة في دماغه اختلت عن توازنها. توازن دقيق في كون خلق بالصدفة! وجع عاد يضرب قلبي من جديد، لن أعود إلى تلك الجماعات مرَّة أخرى، الله يعني التطرف، القتل، دم يحوط العالم، الله كما تعلمته على يد هؤلاء هو أن نعيش نحن ويموت الجميع. مرَّة أخرى أعود لما هربت منه لسنوات. في النهاية حزمت حقيبتي وتركت المنزل وخرجت إلى حيث لا أعلم، خرجت أبحث عنك يا يوسف، لكنني في الطريق اكتشفت أنني أبحث عن الله فيك.

خمسة عشر يومًا قضيتها متجولًا في قرى ونجوع الصعيد، مستشفيات ووحدات صحية وأطباء، وعالم كامل يجتهد لإنقاذ ألف يوسف آخر من الموت، جميعهم اختلت داخلهم أشياء أفقدت الجسد توازنه. مررت على قبرك يا ولدي في مسقط رأسي بمحافظة بني سويف، وقفت

أمام القبر أشعر به يحدثني، هو لم يمت، عاصفة ترابية قامت فجأة، ذرات الرمال تضرب جسدي ووجهي كأنها تُعنفني، صوت ينادي من جديد: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ».

* * *

في مؤسسة مجدي يعقوب بمحافظة أسوان شاهدت طفلة في التاسعة من عمرها تملأ المكان صخبًا وضحكًا، نظرت إلى يديها لأجد أطرافها مبتورة، نظرت إلى ابتسامتها لأشاهد ضحكة لا تتناسب مع بتر الأطراف، وجرحًا ميز صدرها دليلًا على عملية في القلب حديثًا. سألت الممرضة عن اسمها، فقالت: «سمر». سألتها عن أهلها، فقالت إن لا أهل لها، إنها مجهولة النسب، تعيش في دار للأيتام. طلبت من الممرضة أن أتحدث مع سمر حين أنتهي من الحديث مع باقي الأُسر. حين انتهيت خرجت من المؤسسة وذهبت إلى محطة القطار. وأنا عائد إلى القاهرة تذكرت سمر. تعجبت كيف نسيت أن أتحدث معها، ملأني ضيق لأنني لم أعرف سر بسمتها التي هزتني.

بعد شهور من عودتي طلب صداقتي على صفحة الفيس بوك شاب، كتب في رسالته الأولى على البريد الخاص يبدي إعجابه بشيء كتبته عن المنظومة الصحية في مصر.

وجدتني أقول له من دون سبب إنني شاهدت طفلة اسمها سمر في مؤسسة مجدي يعقوب هزتني ضحكتها، لكنني للأسف لا أعرف أين هي الآن. تعجب الشاب، سألته عن السبب، قال:

ـ أنا كفيل سمر في دار أيتام جمعية «رسالة».

تعجبت من اندهاشه، حدثت نفسي أنها ربما صدفة محمودة لا أكثر. رتبنا موعدًا وذهبنا لزيارة سمر، وهناك وجدت ما بحثت عنه للخمسة عشر عامًا في المساجد، بين محاضرات الشيوخ، بين صفحات القرآن ونصوص الأحاديث. وجدت ما تعثرت في إيجاده في سنواتي التي قضيتها أصلي ليلًا ركعتين بسورة البقرة. كنت أظن أن الوصول إلى الله معناه عبادة أكثر، الانضمام لجماعة، جَلْد ذاتي وتعذيبها على خطايا لم تقترفها من الأساس.

سمر طفلة مجهولة النسب، في شهورها الأولى ظن الأطباء في وزارة الصحة أنها ميتة لا محالة بسبب مرض في القلب. تقول مسؤولة الأيتام في جمعية «رسالة» التي تسلمتها من الوزارة إنهم حاولوا منعها عن استلام سمر لأنه لا سبيل لها لأن تعيش، وتؤكد أنها لا تعرف ما الذي دفعها لاستلام سمر، مع أن أسرة أخرى كانت ستأخذها قبلهم. قبل أن تتم سمر عامها الأول أُجريت لها جراحة

في القلب. في عامها الثالث خضعت لجراحة أخرى. في عامها التاسع، وفي اليوم التالي لجراحتها الثالثة، أصيبت سمر بجلطة نتج عنها تسمم دمها بالكامل. عاد الجميع ليقول مرَّة أخرى إنها تموت. لكن سمر عاشت، فقط بُترت أطرافها. قال الطبيب المسؤول إن الأمل الوحيد حتى لا تُبتر أطراف سمر هو أن يُنقل لها دم من والدتها، لكن أين هي الآن!

وقفت أسأل سمر كيف لها أن تبتسم، فقالت إنها في البداية غضبت، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها، ثم صبرت على ما حدث، قالت إن الله أراد ذلك، وإن جزءًا منها سبقها إلى الجنة.

يهتز القلب من جديد، وأنظر إلى سمر فأرى الله في بسمتها، ربما لم أشاهد الله رأي العين، لكنني شعرت بمحبته تلتف حول يوسف وسمر. الله موجود في المحبة، تلك التي افتقدتها سنوات وجودي ضمن جماعات لا تعرف الحب، بل تجتهد في القتل، وتتفنن في أنواعه. كنت أجهل الله لأنني كنت أبحث في الطريق الخطأ. الله في الحب، حب يوسف، حب سمر، أي حب يخترق القلب هو دليل وجود الله. حين أنظر لذلك العام الأخير في حياتي وما حدث فيه بكل تفاصيله أُدرك أن الله موجود، أحتاج كتابًا

كاملًا أحكي فيه ما حدث، لكن في النهاية يكفي ذكر وفاة ولدي يوسف، وحياة الطفلة سمر، لأتأكد على المستوى الشخصي أن الله هنا، وذلك يكفيني.

* * *

انتهت رسالتي يا يوسف، وانتهى الكتاب، لكنها نهاية أعتبرها بداية لعالم جديد، عالم صنعتَه أنت يا ولدي، صنعتَه في أربعة وخمسين يومًا، من دون حتى أن أسمع ضحكتك، أو بكاءك، من دون أن تُحرك ساكنًا، من دون أن تفعل شيئًا، يكفي فقط أنك كنت روحًا عاشت بيننا هذه الأيام.

هذا كتابك يا ولدي، يحكي عنك وعني، يحكينا جميعًا بين سطوره، كتبته لتعيش بيننا، كتبته لأنني لم أتقبل بعد فكرة رحيلك عنا.

شكر

نجلاء بدير، شيرين أبو النجا، عبلة الرويني، هالة لطفي، فاطمة المعدول، يحيى الجمال، أحمد عثمان، أحمد حسنين، محمد مصطفى، مرام مهدي، فتحي شحاتة سالم، أحمد شوقي علي، سمر أبو زيد، أسامة الصاوي، مصطفى فتحي، عصام فتح الله، أمل درويش، ثريا أبو العطا، محمود عبد السلام البشيهي.

أنتم تعرفون كيف وقفتم بجانبي في رحلة يوسف.

ولد يوسف سامح فايز في ١٧ أبريل ٢٠١٤، وتُوفي في ١٠ يونيو ٢٠١٤. وما بين هذين التاريخين قضى يوسف ٥٤ يومًا بين الحضّانات وغرف العمليات. وقضاها سامح فايز بين أروقة وأقسام المستشفيات، ودوامات الأطباء متعارضي الآراء، والمغامرات القاسية للعثور على الأدوية غير المتوفرة إلا في السوق السوداء.

بعد وفاة يوسف بعام خرج سامح فايز من منزله للبحث عن شيء يجهله. قضى خمسة عشر يومًا متجولًا في قرى ونجوع الصعيد، يزور مستشفيات ووحدات صحية وأطباء وصيدليات، ويقابل الناس ويسمع قصصهم مع المرض. لم يحمل معه سوى جهاز الكمبيوتر، يسجل عليه رحلته ويشهد على صراع الموت والحياة في بر مصر.

كل ما حدث سطره بين دفتي هذا الكتاب: بعضه كُتب أيام مرض يوسف، ونقله لنا كما كتبه، يومًا بيوم، والبعض الآخر كُتب خلال رحلته وهو يحاول مداواة ذلك الوجع الذي لزمه منذ ولادة يوسف وبعد رحيله.

كتاب آسر وصادق... قراءته شيقة ومؤلمة وكاشفة في آن.

سامح فايز كاتب وصحفي مصري من مواليد بني سويف عام ١٩٨٥. تخرج في كلية الحقوق في جامعة عين شمس. عمل في التجارة ثم المحاماة، قبل أن يتفرغ للصحافة الثقافية، فكتب في عديد من الصحف والمجلات والمواقع، مثل «المصور» و«فيتو» و«التحرير» و«البوابة نيوز» و«القاهرة». ورأس تحرير بوابة «كُتب وكتّاب». ويرأس حاليًا تحرير بوابة «الشباك» الثقافية. صدر له كتاب «جنة الإخوان: رحلة الخروج من الجماعة»، ورواية «جحر السبع».

الكرمة